

لنا عبد الرحمن

حجاب محبة

قصص مختارة

الكتاب: حجاب محبة (قصص مختارة)

الكاتب: لنا عبد الرحمن

الطبعة: ٢٠٢٢

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم - الوحدة العربية - مدكور- الهرم -

الجيزة - جمهورية مصر العربية

هاتف: ٣٥٨٢٥٢٩٣ - ٣٥٨٦٧٥٧٦ - ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس: ٣٥٨٧٨٣٧٣



E-mail: news@apatop.com http://www.apatop.com

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة: لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

عبد الرحمن ، لنا

حجاب محبة (قصص مختارة) / لنا عبد الرحمن

- الجيزة - وكالة الصحافة العربية.

١٣٧ ص، ٢١*١٨ سم.

الترقيم الدولي: ٢ - ٢٧٥ - ٩٩١ - ٩٧٧ - ٩٧٨

أ - العنوان رقم الإيداع: ١٤٦٠٥ / ٢٠٢١

حجاب محبة

قصص مختارة

بيت الأرابيسك

كنت أنا.. وليس أي أحد آخر، بطلة فيلم
"موعد على العشاء". ينبغي عليّ الآن
التصديق بأنني لم أضع السم في الطبق، ولم
أتناوله تلك الليلة؛ لكن رغم كل ما حدث،
وما لم يعرف أحد بحدوثه، ظللت على يقين بأني
أنا مفتوحة العينين؛ لأنني أتمدد في سرير قاطع
طريق، ذي شارب رفيع، ووجه لزج، يعود كل
ليلة وعلى أظافره القذرة آثار دماء طازجة..

كنت أقول في سري: «لا بأس.. هذا أيضا سيمر»،
وأعود لتأمل تلك اللوحة التي تضم صورة فتاة صغيرة
تسحبها يد رجل ضخم، وهي تسير خلفه وليس سوى
الضباب يمتد بينها وبينه.

في أحلامي، غالبا ما كنت أركض لاهثة لمسافات طويلة
ثم أسقط مغشياً علي؛ وحين أصحو أجد كل الأشياء في
أماكنها، المزهرية التي تواجه سريري وفيها عود من البامبو
ملتو على نفسه، الشباك المغلق، والستارة الرمادية، سجادة

الأرض الفستقية بجانب السرير، ورائحة بهار الكاري تتسرب من بيت الجيران، الكومدينو الذي أضع عليه بعض أدوات زينتي في مكانه أيضًا، فرشاة شعري ملقاة بإهمال قرب علبة ظلال العين، السلحفاة العجوز تقضم ورقة خس في زاوية الغرفة، ثم الدولاب الكبير يجثم بثقل عند الحائط المائل.

تذكرت اليوم معطف الفرو الذي أملكه ولم ألبسه منذ أتيت إلى هنا، أي منذ عشرين عامًا. الطقس حار لا يمكن أن يمنح ترف الأناقة المبالغ بها، الأناقة التي لا أحبها. لذا ظل المعطف الذي اشتريته لي أمني مع تلك القبعة البلهاء في آخر دولاب ملابسي، كيف لم أفكر بالتخلي عنهما طوال هذه السنين؟ لم لم أخلص منهما كي أفسح مجالاً لدخول شيء آخر إلى دولابي الخاص؟

خبيرة «الفينج شوي» تؤكد أن عليك ترك مساحات شاغرة في عالمك؛ لتتمكن الطاقة الإيجابية من اقتحامه. لا توجد أي مساحة في دولابي. سأعيد التفكير بالأمر بحيث ألقى كل ما لا أحتاج إليه خارجًا. لو فتحت النافذة سيبدو لي الهواء راكدًا في مكانه، ظلال أشعة الشمس تتسلل عبر شقوق الأرابيسك من النافذة المقنطرة من أعلى، لكن في

حضور الظلال سطوة قوية لا يمكن إبعادها. كل شبابيك البيت محاطة بالأرابيسك، لا أعرف لم! إذ لم أختَر شيئاً هنا، ولم أقدم أي اقتراح.

أحب أن أفتح الشبابيك على مصراعيها، وسماع صوت أطفال الجيران الذين يلعبون في الحديقة التي تقع أسفل البيت. الصوت الأمر يجعلني أبدو مثل هرة تتعلق بثقوب الأرابيسك لتبصر الشارع، ثم تسقط على الأرض. هل مضى عشرون عاماً على تمثيل دور القطة، وعلى وجودي هنا في بيت الثقوب هذا؟! هل مضى عشرون عاماً على تلك الليلة حين علا صراخ أمي لأنني قلت لها: «لا أريد أن أسكن في بيت رجل يرتدي زياً لونه زيتي، ويضع مسدساً على خصره يسبب لي الرعب». كان هذا الرجل ابن عمي، أمي قريبتة أيضاً، هددت بالغضب والرحيل إن لم أرتضِ الذهاب معه، لم يكن مثل أبي أبداً، أنا كنت أشبه أبي جداً، وهي كانت ترانا ساذجين؛ لأننا لا نشبهها ولا نشبه ابن عمي صاحب البذلة الزيتية. كنت في سذاجة القطط حين صدقتها بأنها ستغضب، وسترحل إن لم أرضَ به، تدرك أمي دائماً كيف تنفذ ما تريد بأي الوسائل، كيف تدير الرؤوس،

وتلعب بالأفكار. هكذا نقلت وصايتي منها إليه. وأنا لم أكن
مرة وحدي، في بيت أمتلك فيه حق فتح النوافذ.

قرر هو أن ينزع عنه بذلته ويهاجر إلى هنا، تخلى عن
مسدسه، وتحول إلى قاطع طريق حديث، لا يمكن لأحد أن
يكتشفه. توقفت عن الخوف منه منذ زمن طويل، ليس لأنه
خلع زيّه، وترك مسدسه، وارتدى زيا آخر، بل لأنني
اكتشفت أنه لن يؤذيني؛ فقد كان مندمجاً في عالمه، إلى الحد
الذي لا يسمح له سوى بحبس القبط.

الحرارة مرتفعة، الشمس ترسل مراسيلها عبر الثقوب المحفورة
في الخشب، ألمس ثقوب الأرابيسك بأصابعي، سطحها ناعم،
تجاويفها غائرة، حادة قليلاً، أشم رائحة غبار قديمة، جانب وجهي
ملتصق بالجدار قرب النافذة، أصوات هدير السيارات ترتفع
بصخب، أبصر سيارة نقل كبيرة تتكدر فيها أجساد عمال بناء،
كوت الشمس جلودهم بلا رحمة. أنا هنا في الظل، أحرك مقبض
النافذة، صوت صرير عتيق، حين أفتح النافذة تتسلل إلى البيت
روائح كثيرة، بعضها شهبي يدفعني للتفكير بالطهو، بدمج مكونات
كثيرة، لإعداد وجبة عشاء مميزة، فقد تمكنت أخيراً من فتح
النافذة.

الموتى لا يكذبون

طلبت من السائق التوقف حالاً، فقد كان ما
شاهدته فوق مستوى الخيال!! كان خالي الذي
مات منذ عام يقف على الرصيف المقابل
ويستعد لعبور الشارع، نزلت بسرعة جنونية
واندفعت نحوه، كان هو، حقاً، هو، ليس رجلاً
يشبهه بل هو فعلاً.

بشرته السمراء المحروقة، عيناه الزيتيتان، شعره الأسود
الفاحم، وندبة في أعلي جبينه تؤكد لي بما لا يحمل شكاً أنه
هو، اقتربت منه رأني، غاصت كلماتي وابتعدت في أقصى
تجاويفي، مد يده لمصافحتي فصافحته وأنا صامته، وجهه كان
بشوشاً سعيداً برؤيتي كما كان دائماً.

- كيف هي أمك وأخوتك الصغار؟

سألني بشوق:

- بخير، تمتت بذهول:

- إذن هو خالي، ويذكرني جيداً ويذكر والدتي، لم أشأ القول "أنا أعرف أنك مت"، بل قلت وأنا على وشك البكاء:

- أنا بخير يا خالي وكيف أنت؟

لكنه أردفني بسؤال آخر فقال:

- أنت تتعجلين في قراراتك، لماذا تفعلين ذلك لقد كنت متهورة، لم وافقت على هذه الخطوبة؟ هذا الرجل لم يكن لك، وأنت لست له.

- غير معقول؟ أنت تعرف بأمر خطوبتي أيضاً، ابتسم ابتسامة حانية وهو يقول:

- يا صغيرتي.

- أنسيتي أنني ربيتك طفلة، وأعرف ما تختارينه، وما تفعلينه قبل أن تقومي به.

الشمس كانت حارقة في الشارع، بدأ العرق يتصبب مني وأنا مازلت أنظر إليه بدهشة لكنه كان هادئاً وعادي الملامح كما لو أنه كان عندنا الأسبوع الماضي.

- انتبهي لنفسك أكثر، ولا تتسرعي، قالها لي بسرعة
وعبر الشارع فيما أنا أهدق في ظله المبتعد. غير معقول،
هناك خطأ، لابد أن الذي مات لم يكن خالي، عليّ العودة
إلى البيت حالاً كي أقول لأمي إن خالي مازال حياً وإنني
رأيتُه وتحدثت معه.

دخلت إلى منزلنا، كانت أمي تقطع الطماطم في المطبخ،
اندفعت نحوها وقلت بصوت مرتفع:

- ماما خالي مازال حياً لقد شاهدته و.. و.. وراحت
أمي تبسمل وتحول، غير مصدقة ما أقول، ثم وضعت يدها
على رأسي وقالت:

- رأسك ساخن، يبدو أن حرارتك مرتفعة لا.. لا أنا لا
أهذي صدقيني لقد رأيتُه، قولي لي هل أنت متأكدة أن الذي
مات منذ عام هو خالي، هل شاهدت غسله، هل شاهدتيه
وهو ميت.

وكأنني أواجهها بحقيقة أخرى فقالت:

- لا لم أشاهده، لا يمكن للمرأة أن تحضر غسل رجل
غير زوجها، الوحيد الذي حضر غسل خالك كان قريبنا

"عواد" نامي الآن، يبدو أنك مريضة جداً.

لم أنم، ولم تغفو عيناى تلك الليلة، وجهه لم يفارقني أبداً، انتظرت شروق الصباح بفارغ الصبر كي أذهب إلى بيت قريبتنا عواد لأنه يسكن في منطقة بعيدة جداً، لم يكن يأتي لزيارتنا إلا في مناسبات الأفراح والأحزان.

في ساعات الصباح الأولى انطلقت إلى بلدة عواد استغرقت ساعتين من الوقت، استقبلتني زوجته بترحيب، لكنها استغربت زيارتي، ولم أجد عواداً، قالت لي إنه ذهب إلى عمله، رجوتها أن ترشدني إلى مكان عمله لأني أحججه في أمر هام وصلت إلى المكتب الحكومي حيث يعمل "عواد"، فاستقبلني بود ظاهر رغم أنه احتاج لنصف دقيقة كي يتذكر ملامحي، بعد هنيهات لم أجد ما أقوله، وبدت زيارتي غير مبررة إطلاقاً.

قلت:

- يا عمي "عواد" أنت حضرت غسل خالي، أليس

كذلك؟

نظر إلى بدهشة، ثم قال "رحمة الله عليه كان رجلاً طيباً

جداً، لو كان تزوج وأنجب ولداً يحمل اسمه.. " لم أسمع بقية عباراته غامت عيناى وراء مشهد لقائى الأخير مع خالى.

عدت من منزل عواد وقررت أن أذهب إلى الدائرة الحكومية التى تختص بشؤون الوفيات سأحصل على شهادة وفاته لأتأكد أن ما يجري حقيقة

لكن الموظف الحكومى لم يجد شهادة وفاة خالى، ووجد شهادات وفاة وأسماء كثيرة تتشابه معه، خرجت من هناك وأنا أشعر بفرح كبير. إذن لابد أن الرجل الذى التقيت به هو خالى فعلاً.

- لكن كيف لي التأكد؟

صعدت في السيارة وطلبت من السائق أن يقودني إلى الشارع الذى التقيت به خالى البارحة، كان الشارع كبيراً ومزدحماً، رحلت أسأل المحلات القديمة والعاشرين في الشارع، والبائعين الجائلين ومطاعم الوجبات السريعة، إن كان أحد منهم يعرف رجلاً بهذا الاسم، لكن الجميع أجابني بالنفي المطلق، ماعدا صاحب الفرن الذى قال لي إن هذا الرجل يسكن في الشارع المجاور وعنده طفلان، هل من المعقول أن

خالي كان متزوجاً بالسر؟ ذهبت إلى حيث أرشدني نحو منزل صغير في آخر الشارع، خرج إلي رجل شاب في الثلاثين، لم ينكر اسمه، لكنه لم يكن خالي، حكيت له أنني أبحث عن رجل يحمل الاسم نفسه ويسكن في هذا الشارع، فأكد لي أنه لا يوجد غيره هنا بهذا الاسم. عدت أسير بخطواتي المتكسرة لأول الشارع يغمري إحساس بكآبة مطلقة "لا بد أنني مريضة" أنا أهذي وأتخيل، ولا بد أن خالي مات حقاً وأن الرجل الذي التقيت به، لم يكن إلا وهماً كبيراً. سرت نحو أول الشارع، صعدت إلى السيارة، وقررت العودة إلى منزلي، ما إن أغلقت باب السيارة والتفت ورائي حتى رأيت "خالي" يصعد في سيارة أخرى وتنطلق به في الاتجاه المعاكس، نظر إليّ وهو يتنعد، وعلى وجهه ابتسامة، أنا لا أتخيل إذن؟ هذا هو خالي وأنا لا أهذي أبداً، كدت أجن، من سيصدقني؟ وصلت البيت، حكيت لوالدي كل ما حدث وقلت لها يجب أن تصدقيني، وتقتنعي أنني لا أكذب عليك.

نظرت إليّ بشفقة، بدت في غاية القلق، "نامي يا ابنتي، أنت تعانين من حمى" لا أنا سليمة تماماً، صدقيني خالي لم يموت هو حي، ولم أحصل على شهادة وفاته .

- هل حصلت عليها أنت خبريني؟

- لا لم أحصل عليها؟

- كانت أيامها الحروب مشتعلة وبالكد تمكنا من غسله ودفنه.

- أعطيني مفتاح بيته أرجوك أريد أن أرى بيته. ناولتني المفتاح، فغادرت بيتنا وتوجهت إلى بيت خالي القديم، المبنى شبه متآكل، لكنني سعدت نحو شقة خالي، فتحت الباب ودلفت إلى الداخل المظلم، أضأت النور، ورفعت الستارة، لا غبار في المكان، ولا رائحة عطن تدل على أن المكان مهجور منذ عام، رحلت أتجول في الغرفة، كل شيء في مكانه على خير ما يرام، وقفت في غرفة الجلوس التي تطل نافذتها على شرفة صغيرة، نظرت على الزرع، ورقها مازال أخضر، وإلى جانبها يوجد كرسي صغير وطاولة مستديرة عليها علبة دخان "روثمان" فارغة.

- أليس هذا هو النوع الذي كان يدخنه خالي؟

أخذت علبة الدخان الفارغة، نزعته خاتم الخطوبة من يدي اليسرى، وقررت مغادرة المكان.

مدينة الألعاب

راقبت لاعبة السيرك وهي تحاول أن تتوازن على الحبل الذي تسير عليه، تماهت مع ميلها للتوازن، وحرصها على عدم السقوط، تتحرك اللاعبة بخفة وحذر، تضع قدمها الصغيرة التي تنتعل فيها حذاء مطاطيًا على الحبل المتدلي بين طرفين.

ثمّة أسد رابض على الأرض، يفتح فمه، ربما يكون جاهزًا لالتهام الفتاة، يسوطة مدربه بقوة تحزنها. تراقب الجميع حولها، الأطفال يدركون أنها لعبة، والكبار يستمتعون بالمشاهدة، لا توجد أي ملامح اضطراب على وجه أحد سواها. تنظر إلى أعلى، إلى الخيمة المخروطية، تتأكد أن كل ما يحصل يجري في مدينة الألعاب، وأن هذا كله مجرد عرض ليس إلا، عرض سينتهي بعد قليل.. تعود عيناها لمتابعة حركة الفتاة التي صارت معلقة في وسط الحبل، فوق رأس الأسد تمامًا. تندفع من فمها شهقة تدفع ابنها ليقول لها:

«ماما، أنت خائفة؟ لقد شاهدتُ هذا العرض قبل الآن

في رحلة المدرسة، لا تخافي، لن يحدث شيء». .

تجنبت مرارًا الدخول لمدينة الألعاب، إنها مكان مفرع بالنسبة إليها، كل ما فيه يدفع للدوار، لأن الأشياء تكون في موضعها المناسب تمامًا، وفي العالم الخارجي الأشياء لا تكون على هذا الحال، العالم في الخارج مضطرب، ومدينة الألعاب تخلق اضطرابها الخاص الذي تراه منظمًا مقارنة مع اضطراب العالم، وهي لم تعد قادرة على احتمال هذا النظام والخروج من اضطرابها إلى نظام لا تعرفه. العالم في مدينة الألعاب يقوم على لعبة. لعبة متقنة ليس إلا. وهي لم تعرف متعة الاستمتاع باللعب. تذكر وهي طفلة، حين انكسر سننها الأمامي بعد ارتطام السيارة التي تقودها في لعبة السيارات بسيارة أخرى. نزت الكثير من الدم، ولم تعد قادرة على الإستمتاع باللعب أبدًا.

عبرت الفتاة الحبل الرفيع، ونزلت منه بخفة، طوت جذعها لتحي الجمهور، ثم رفعت ساقها في الهواء، لتتسلق حبلًا يتدلى من الأعلى. لم تكن قادرة على مواصلة المشهد أكثر، كانت الفتاة تؤدّي كل الحركات التي لم تستطع هي يومًا القيام بها. تسمع صوتًا في عقلها يقول: «إنها لاعبة

سيرك، لاعبة تعرف كيف تمشي على الحبال الرفيعة». فتسمع صوتاً آخر يرد: «لا يهم، لا يهم، لكنها قادرة على القفز، على التسلق، ومراوغة الأسد والفرار منه دون أن يلتهمها».

يتجادل صوتان في داخلها، تحس أنها على وشك الصراخ، وهي تتخيل أنها لو كانت مكان اللاعبة، سيلتهمها الأسد لا محالة.

ترك ابنها في داخل الخيمة المخروطية، تخبره بأنها ستنتظره في الخارج. يهز الولد رأسه وهو يتابع حركات المهرج الذي يدهن أنفه بالأحمر، ويضع على رأسه قبعة الساحر، قبعة سوداء من قماش الشاموا، لا تتناسب مع وجهه المدهون بأصباغ كثيرة، يبدو أن تلك القبعة استعارها في اللحظات الأخيرة من رفيقه الساحر لأنه فقد قبعته الحمراء. أليست الأشياء مرتبة في مدينة الألعاب؟ كيف يفقد المهرج قبعته إذن؟ كيف يستعير قبعة الساحر الأنيقة التي يستخدمها لإخفاء الأرنب؟

في الخارج، أشعلت سيجارة، لم تكن تدخن في المعتاد،

إلا حين تحس باضطراب كثيف. كانت على وشك الدخول في حالة من الإغماء، تقاومها بالتفرج حولها، تأمل عوالم المدينة الصغيرة. التي تتوزع إلى غرف بلاستيكية، وخيم، وتنطوي على حيلها وحكاياتها وخفاياها. ستظل جالسة هنا، ريثما ينتهي ابنها من متابعة العرض، لن تبرح مكانها أبداً، خشية دخولها في دوار جديد. على يمينها شاهدت أشكالاً مرعبة لأشباح مرسومة على قماش سميك، وستارة سوداء طويلة خلف الرسومات الشبحية، وفوق الستارة عبارة «مدينة الأشباح»، وبجانب العبارة رسم لعلامة القرصان عظمتين متقاطعتين. على يسارها كانت مجموعة من الأرجوحات التي تعلو وتهبط في حركة مستمرة. قررت ألا تنظر إلى أي الاتجاهين، لكن رغبةً عنها كانت الاتجاهات تتدافع أمامها وتتقاطع عند نقطة واحدة. عند بوابة إحدى الخيم ارتفع صوت دوي نار، أو انفجار مفرقة ارتفعت في الهواء، وانتشرت معها رائحة البارود، الناس حول الخيمة يصفقون كما لو أنهم في كرنفال.

قررت السير للأمام، بحثاً عن مقعد آخر ليس ببعيد، كي لا تشم رائحة البارود، ولا ترى مدخل مدينة الأشباح أو

الأرجوحة التي تسبب لها دوارًا. سارت عدة خطوات بحثًا عن مقعد، كان رجل خمسينيًا أسمر يرتدي بنطلون جينز أسود ومعطفًا رماديًا، يجلس على طرف مقعد مجاور خيمة السيرك من الجانب الخلفي، لم تستأذنه لتجلس على طرف المقعد. التفت نحوها، ثم أبعاد وجهه بسرعة، تلك الالتفاتة كانت كافية لتذكره على الفور. لم يتذكرها الرجل أبدًا، لكنها هتفت به:

«ألا تذكرني؟».

ابتسم الرجل وهو يهز رأسه باستفهام. حاولت أن تذكره بنفسها، بأنها ابنة فلان صديقه، قالت له إنها تذكره من أيام الطفولة، حين كان يأتي إلى بيتهم، وكانت تجلس أحيانًا على ركبته، وكان يحضر لها شوكولا مارس، أخبرته بأن أباهما اختفى بعد نهاية الحرب، في ظروف غامضة، ولم يُعرف عنه شيئًا، كانت تتحدث وتتحدث، عن تفاصيل مضت من أيام الطفولة. لكن الرجل استمع باهتمام من دون أن يقول عبارة تفيد بأنه تذكر شيئًا.

عادت لتقول له مؤكدة: «أنت تمثل لي شيئًا مهمًا، ظل

أبي بعد سفرك إلى لندن يحكي لنا عنك، عن حنينك لوطنك،
عن القصائد التي تكتبها، كان يقرأ لنا أبياتاً من قصائدك».

وكأنما لمعت في عيني الرجل ذكرى شحيحة، أضاءت
وجهه.

في تلك اللحظة، خرج ابنها من خيمة السيرك، اندفع
نحوها وبيدو عليه بعض الغضب: «ماما أين أنت، بحثت
عنك»، نظر إلى الرجل الذي يجلس على طرف المقعد الآخر،
لم يعره اهتماماً، شدها من يدها وهو يقف بجوارها قائلاً:

«ماما، تعالي، أريد أن أدخل إلى مدينة الأشباح».

ظل الرجل صامتاً، لم يقل أي كلمة. ربما تابع خطواتها
وهي تمضي مبتعدة.

كانت تفكر، ماذا يفعل هذا الشاعر في مدينة الألعاب،
هل كان ينتظر أحداً ما؟ لم يجلس هنا، لم يتكلم أبداً، لم لم
يتذكرها، لم يتذكر صداقته لأبيها، وأيامهما التي مضت بين
حرب وحرب؟

سار الولد خطوتين، وهي خلفه، يشدها من يدها وهي

تسير ببطء. التفتت إلى الورا، كان المقعد شاغراً، والرجل
الخمسيني ذو المعطف الرمادي يمضي في اتجاه آخر، ربما نحو
خيمة السيرك.

في مدينة الألعاب، تعود الأشياء إلى أماكنها المناسبة،
ويبدو الأشخاص على حقيقتهم أكثر مما هم في الحياة.

البحر يتجه شمالاً

تلك الطفلة، أخبرته بأنها فقدت والدها، منذ زمن طويل. حكى لها أنه فقد والدته أيضاً. بكيا معياً. لم تمسح دموعه، ولم يطلب منها أن تتوقف عن البكاء. ظلا في مكاتهما، صامتين، يرنوان نحو البعيد، وينتظران مضي العاصفة.

كان كل منهما يستعيد ذاكرته، بتعاطف مشوب بالحاجة إلى رؤية الآخر أكثر سلاماً، لكن خلال سيرهما على الشاطئ المليء بالحصى، لفت انتباهه طرف ثوبها الوردي المشغول بخيط رفيع من الدانيل، كان طرف الثوب يلامس الحصى. راوده احساس أن ذاك الحصى مبتهج الآن بلامسة حافة الثوب له.

«كلنا بحاجة إلى البوح، لتنظيف جراحنا»، هكذا قالت

له.

سمع هذه العبارة مراراً، لكنه أحس بأنها المرة الأولى التي يسمعها بلا نغمة مكررة. لم يسألها كيف فقدت أباه، ولا

باح لها بحكايته، بل أخبرها بأنه سيقص عليها ماذا فعل به
البحر.

حينما كنت صغيراً، كانت أُمي تأخذني معها إلى البحر.
لم تكن هناك مواعيد محددة لذهابها، ربما كانت تستغل الأيام
التي يغيب فيها جدي أو يسافر إلى دمشق، ثم كانت تطلب
مني ألا أبوح أمامه بأننا ذهبنا إلى الشاطئ.

الوصول إلى البحر يتطلب منا أن نعبر مسافات طويلة،
من بلدتنا في بعلبك إلى بعلبك المدينة، ثم إلى شتورة، مروراً
بزحلة، ثم ضهر البيدر وصوفر وبحمدون وعالية، نمر بكل
الطريق الجبلي الطويل قبل وصولنا إلى بيروت كي نلتقي رجل
البحر. الرجل الذي يشتري لي البيبسي والشوكولا، وبعد لها
وجبة من السمك المقلي في بيته الصغير المطل على البحر، لم
يكن بيتاً على ما أذكر، كان أشبه بالكوخ.

ما إن نصعد إلى سيارة التاكسي حتى تتناول من حقيبتها
شريط كاسيت، تمد يدها إلى السائق وتطلب منه أن يضعه.
كانت أغنية عن البحر أيضاً. كنت أرى السعادة تثب من
عينيها، وهي تحتضني وتقبلني على جبيني وخدي وتسالني إن

كنت أحس بالعطش أو الجوع. تناولني زجاجة عصير أناناس،
وقطعة من الشوكولا وتطلب مني أن أكلها.

حين يراني رجل البحر برفقتها، يرفعي عاليًا على كتفيه،
ويركض بي على الشاطئ قبل أن يضعني على الرمل وينزع
عني ثيابي. يقول لها إن علي تعلم السباحة منذ الصغر،
لكنها تطلب منه أن يدعني وشأني. لم تكن ثيابي تتناسب مع
الرمل ولا مع الشاطئ، كنت طفلاً أيقا كما أراد لي جدي
أن أكون.

في المرة الأخيرة التي زرنا فيها رجل البحر قالت له إنها
ستأخر في الحضور إليه، وربما ستتغيب لوقت طويل، لأن
جدي لن يبتعد خلال المدة القادمة ولن يغادر إلا للإشراف
على محاصيله الزراعية. طلب منها رجل البحر أن تترك أباهما
وتأتي لتعيش معه. نظرت حولها إلى الكوخ وقالت له إنني
سأدخل إلى المدرسة هذا العام.

أمسكني رجل البحر من يدي، فبدت يده ضخمة جدًّا
مقارنة بيدي الصغيرة، ثم قال لي إن شعري يشبه شعره. كان
شعري أسودً وكثيفًا مثل شعره، لكن شعره كان طويلًا يصل

إلى أول رقبتة.

حين عدنا إلى بيتنا في بعلبك، وجدنا جدي ينتظرنا، عاد
باكراً من سفره هذه المرة، كنت أغني أغنية البحر، ارتجفت
حين رأيته.

عادة هو لا يتحدث معي كثيراً، لا يلاعبني، كان صامتاً
أغلب الوقت.

اقترب مني وسألني: «أين كنت؟»

- كنت عند البحر.

-ومن رأيته؟ سألني بتجهم.

حكيت له عن رجل البحر، وعن يديه القويتين اللتين
تحملانني، وعن شعره الأسود الذي يشبه شعري.

بدت عيناه كتلتين من جمر ملتهب، تحرك نحوها أمسكها
من شعرها، هزها بعنف شديد وهو يقول لها:

"منذ خمسة أعوام ذهبت إليه، إلى من بصق في طعامنا،
وكانت هذه النتيجة".

قال هذه العبارة وهو يشير بسبابته إلي، أحسست
بالفزع، التصقت في الزاوية.

«سأقتلك»، قالها لها وهو يضع يديه حول عنقها، وهي
ترفسه محاولة التملص منه وهي تصيح في وجهه:

«أنت دمرت حياتي.. دمرت حياتي».

كان يشدها محاولاً خنقها بيديه وهي تحاول الهرب.

من على الحائط خلفها تماماً أخذت الفأس المعلقة
للزينة، الفأس التي يفتخر جدي بأنه ورثها عن والده ويعلقها
في صالونه كتحفة نادرة.

ضربة.. ضربتين.. ثلاثاً.. دماء تسيل على الأرض.

قتلته هي.

هكذا حدث القتل.

هكذا كان اليوم الأخير.

اليوم الأخير الذي رأيت فيه رجل البحر، ورأيت فيه
أمي، وجدي.

ذهبت أُمي إلى سجنها، وذهب جدي إلى مثواه الأخير،
ولم أرَ رجل البحر مرة أخرى، حملني خالي معه إلى البرازيل
ليبتز كل خيوط ذاكرتي، ليشكلني على هواه. أنا الشاهد
الوحيد على كل ما كان.. أنا طفل رجل البحر، ما زلت
أذكر حتى الآن أغنية أُمي، تلك الأغنية البحرية عن رجال
البحر. لكن أنا الآن هنا، أمام بحر بعيد، غريب، ليس له
صلة مع ذاكرة بحر آخر.

«هل آلمتك حكايتي أيتها الصبية؟».

لم ترد. انحنيت لتلم الحصى الصغير عن الشاطئ،
ابتسمت وهي تمد يدها اليمنى نحوه، بينما يدها اليسرى
تقبض على الحصى، ثم قالت:

«دعنا نمضي من هنا، من أمام هذا البحر الغريب.
سوف نمضي نحو شاطئ رملي، لكن دعني ألق قبضة الحصى
من يدي قبل البوح بحكايتي، كي أحكي ماذا فعل بي البحر
أيضا؟».

صندوق كرتوني يشبه الحياة

اسمع يا خليل.. حكايتي مع سلمى بسيطة، في غاية البساطة، لكنني لم أنسها بسهولة.

تخيل أنك تمشي في الشارع، ثم فجأة يظهر أمامك صندوق كرتوني كبير، ويُفتح من تلقاء نفسه وتطلق منه أشياء سحرية وحدك تراها، مظلة تعزف ألحانا ثم تطير في السماء، قزم يرقص وهو يرتدي قبعة حمراء، تين مجنح يطلق النيران من فمه، جنية لطيفة تحلق على مستوى بصرك، فتحول غبار المدينة إلى ألوان قوس قزح، تخيل الشوارع المزدحمة والقذرة إلى شوارع يتجمهر فيها الناس بهجة كما لو أنهم يستعدون لكرنفال.

كان عبور سلمى في حياتي يشبه هذه التفاصيل، مع الفارق، أي التقيت في عالمها مع «مسرور» سيف «ألف ليلة وليلة».. أنت لا تصدقني، لكن هذا ما حدث بالفعل، إذ بعد لقائي إياها بساعات ذهبنا إلى بيتها، وهناك فوجئت بوجوده، صاحب جسد ضخم، أسود، مفتول العضلات، يلعب بجنزير ثقيل من الحديد.

سأحكي القصة من البداية..

في نهار مثل كل الأيام، المملة، الروتينية، المتشابهة، التي تبتلع عمري، استيقظت وفعلت ما أفعله كل يوم، تلك التفاصيل تبدو لي ثقيلة جداً، الاغتسال الصباحي، تنظيف أسناني، تسريح شعري، ارتداء ثياب نظيفة، تناول الطعام والذهاب لوظيفتي التي مضى على وجودي بها أكثر من ربع قرن؛ إحساسي بثقل التفاصيل منحني إجابات عن أسئلتني عن خروج الناس من بيوتهم في هيئات مزرية، لأول مرة غمرني تعاطف حقيقي نحو هؤلاء الذين أصابتهم لعنة الملل مثلي، والتساؤل عن جدوى التمسك بالتفاصيل اليومية الروتينية البسيطة لمواصلة الحياة.

في ذلك اليوم، أخذت معي دفترتي الذي أكتب عليه سيناريو فيلمي الجديد. كلما شاهدتني زوجتي وأنا أستعد للخروج من البيت أحمل الدفتر في يدي، نظرت إليّ تلك النظرة الساخرة التي أعرفها. هذه المرة كانت تكوي قميصي الأبيض، المكواة في يدها اليمنى، ترتدي ثوب نوم بدون أكمام، قلت في سري إن موهبتها في التمثيل جيدة، لكنها مثلي لم يحالفها الحظ، كنت أعرف أنها تقول في سرها إنني

السبب في فشلها، منذ أن أدت دور البطولة في الفيلم الأول الذي كتبت قصته، وفشل فشلاً ذريعاً. بعد ذلك توارت زوجتي عن الشاشة، وحين أقول توارت أعني أنها اختفت فعلياً، أنجبت طفلين وأنهت علاقتها بالعالم الفني، وتركتني وحدي أعيش أحلام كتابة فيلم يعيدني إلى دائرة الضوء. آه، صحيح، يجب أن أكون دقيقاً في تعبيراتي، لم أكن في دائرة الضوء كي أعود إليها.. المهم يا خليل، سأعود إلى حكاية سلمى، في هذا اليوم الممل مثل سائر الأيام، كنت أتوجه إلى عملي، ركبت المترو، ونزلت في محطة العتبة، ومشيت إلى شارع شريف، في هذا الصباح الصيفي اللطيف رأيت مشاجرة في إحدى زوايا الشارع، كان هناك ثلاثة شباب وفتاة، يدور بينهم عراك لا أعرف سببه، لكنه أثار فضولي لمعرفة أسبابه.

أنا لست ذاك الشاب القادر على التدخل لمواجهة شباب يعاكسون فتاة في الشارع، الأمر ليس كذلك، لكن من وسط بؤرة الظلام أو الزحام، كانت عيناها تلمعان وتتوسلان كي أقترب، كانت علي وشك أن تناديني باسمي، أو هذا ما تخيلته، لذا اقتربت، عبرت الجموع واتجهت نحو

الفتاة، سحبتها من يدها وأنا أقول: «ابعد أنت وهُوا»، كان في صوتي لحظتها، قوة جبارة، حاسمة، هل تعرف تلك القوة التي تأتي إليك فجأة مثل قبس نور من إله غامض، فتجعلك مهابًا في أعين الجميع، كما لو أنني هرقل، أو شمشون الجبار، اتسعت الدائرة وعبرت أنا وهي مثل ملك وأميرة، إي والله.. كان اللغظ يدور خلف ظهري، يشبه التحليلات الفلسفية بعد حدث كبير، لكن هذا التفصيل هامشي ومجرد استكمال للصورة، الحدث سيكتمل حين أقول لها: «ما رأيك لو نجلس هنا؟». كنت أشير بيدي نحو مطعم فاخر، يقدم قهوة وإفطارًا لذيذًا عند الصباح، وقائمته مزدهمة بوجبات حوم ودجاج عند الظهر وفي المساء.

حين جلسنا في المقهى، طلبت هي بيكاتا بالمشروم، آه فعلاً هذا ما حدث.. «بيكاتا على الصبح»، هكذا قال الجارسون مندهشًا من الطلب، ردت عليه سلمى بقوة: «آه الصبح.. وانت مالك؟». عاد الجارسون بعد أقل من ساعة، وضع أمامها طبق بيكاتا بالمشروم والأرز، كنت حينها أشرب قهوتي، وأحكي لها عن الفيلم الذي أنوي كتابته. لم يبد أنها مهتمة بما أقول، كانت تأكل بنهم، بدا لي أنها جائعة جدًا،

ورغم هذا لم تكمل الطبق كله، ونادت الجارسون وطلبت أن يضع لها ما تبقى منه في علبة بلاستيكية. لم تحك عن الحدث الذي أدى لتعارفنا، الشباب الثلاثة الذين اجتمعوا حولها وحاولوا التحرش بها في أحد الشوارع الجانبية، بل غيرت مجرى الحديث حين حاولت معرفة إن كانت تعرفهم، أو إن كان ما حدث مجرد صدفة. كل ما قالته لي: «هذا يحدث معي دائماً». جملة مبهمة لم تضيف عليها أي توضيح، ما الذي يحدث معها دائماً، التحرش؟ أم لقاء شخص غريب مثلي؟

قامت إلى الحمام، تمليت من قوامها المعتدل الأميل للطول، كانت بيضاء تلك الدرجة من لون البشرة القشدي، شعرها طويل فاحم السواد. عيناها السوداوان ذكرتاني بشرط بيت الشعر القائل:

«الوجه مثل الصبح مبيض والشعر مثل الليل مسود». وجنتاها مرتفعتان، وذقنها رقيق، شفتها السفلى وردية وتتدلى قليلاً إلى أسفل. كانت ترتدي بنطلوناً من الجينز الضيق، وبلوزة ذات لون برتقالي شاحب، وهي عائدة كان هداها يرتجان مع كل خطوة، خمنت أنها ترتدي حمالة صدر رخوة، تجعل ثدييها يتقافزان. لم تكن قد تجاوزت

الخامسة والعشرين من عمرها، على ما أظن، وكنت قد تجاوزت الخمسين بكثير من الأعوام.

كيف أشرح لك يا خليل.. سلمى لديها تلك الطلة الملكية، ربما هي ليست فاتنة الفاتنات، لكنها تمتلك نظرة مترفعة تتحدى العالم بسخرية واضحة، لكن ليس هذا هو المهم فقط، سلمى خلقت في داخلي حالة من الفرح، أنا عاجز عن الشرح، أو الوصف بدقة لما حدث معي، لكن دعني أكن محددًا، كي لا يلتبس عليك الأمر، لا، ليس الحب ما أعنيه، ولا الرغبة، هذا لا يعني أنني لم أرغب بها، بل على العكس هذا كان متاحًا منذ الساعات الأولى، بعد أن غادرنا المقهى قالت لي بوضوح: «أنا تحت أمرك»، جملة غامضة نوعيًا ما، ممكن أخذها على أكثر من وجه، لكنني ابتسمت وقلت لها، إن لدي رغبة بالمشي على كورنيش النيل، رحبت بالفكرة وسرنا سويًا لمدة ساعتين.

لم أعرض عليها أن نترافق للسريير لأسباب نفسية تتعلق بطقوسي فيما يتعلق بالجنس، أي: أمن المكان ونظافته. فكرت أين سأذهب معها؟ وأين سأكون على راحتى، أنا لا أحب ممارسة الجنس إلا في بيتى، حتى علاقتى وخياناتى

الزوجية قمت بها في غرفتي، خليل.. أنت رجل وتدرک أن الجنس والخوف لا يجتمعان، في المرات التي حاولت فيها ممارسة الجنس في أماكن أخرى غير بيتي، فشلت فشلاً ذريعاً، لكن يبدو أن الأمر يتعلق بتجاربي الأولى مع الفنادق الرخيصة، وما حدث بها من فضائح. لا أريد الخوض في الماضي الآن، سأعود إلى حكايتي مع سلمى وأوضح أن السبب الأول في تفضيلي المشي على الجنس هو عدم توفر مكان آمن، زوجتي لن تذهب للمبيت عند أمها كما يحدث مرتين في الأسبوع، هذا لن يحدث إلا بعد يومين، وعليّ الانتظار إذن، والحفاظ على علاقة جيدة مع سلمى. لا أستطيع الجزم بأن سلمى بائعة هوى، أخبرتني أنها تعمل سكرتيرة في شركة، وأنها تدرس في الجامعة المفتوحة، ضحكت وهي تخبرني عن دراستها، أبدت تعجبي، حينها قطبت حاجبيها واعتبرت أنني أستهزئ بها.

لم أذهب للعمل في ذلك اليوم، أنا موظف حكومة ولديّ فائض من الإجازات. سأستفيد من كل تلك الإجازات في نزهات مثيرة مع سلمى أعيد فيها اكتشاف القاهرة من جديد.. تجولنا في شوارع وسط البلد، وأمسكت سلمى

بذراعي ونحن نعبّر الشارع، وفي كل مرة كنا نضحك كثيرًا. ثم تناولنا الآيس كريم من محل "العبد"، كانت سعيدة، وكنت سعيدًا، وفي آخر اليوم، كان على كل منا أن يعود لعالمه، لكنني لم أقوَ على فراقها قبل أن أتيقن من رؤيتها من جديد.. هل هذه حماقة، آه ربما!

رفضت سلمى في البداية أن أمضي معها لأعرف أين تسكن، أعطيتها مبلغًا من المال قبل أن تغادرنني، وضغطت على يدها في شبه توسل كي أوصلها إلى بيتها.

صعدتُ معها في المترو، ثم نزلنا في محطة «الجزيرة»، ثم ركبنا «ميكروباص» مضى بنا في مجاهل لم أرها في حياتي، وبعد أن نزلنا من الميكروباص ركبنا في توك توك، ثم بعد نزولنا من التوك توك أخبرني سلمى أن علينا المشي قليلاً وسط طريق ترابي ومتعرج، مليء بالحفر، وعلى جانبه بيوت متلاصقة بشكل عشوائي. إنه عالم جديد بالنسبة إليّ، بدت لي سلمى في تلك اللحظة مثل وردة ملقاة في القمامة، وبدا لي الصندوق الكرتوني الذي انفتح في وجهي صباحًا، أشبه بصندوق حديدي يصدر غازات سامة. تحسست دفترتي الذي أكتب فيه سيناريو الفيلم الجديد، حسنًا، ها أنا أمام حكاية

واقعية، لا بأس، ربما يأتي كتاب السيناريو إلى هذه العوالم كي يستوحون منها قصصًا لأعمالهم.

بيت سلمى عبارة عن ثلاث غرف متلاصقة مثل عنابر السجن، لا توجد فيه كهرباء، ولا ماء. كل شيء فيه ملفوظ إلى الخارج، حتى أطباق الألمنيوم والأواني المحروقة التي يطهون فيها طعامهم متروكة أمام باب البيت. لا أستطيع وصف والدة سلمى بدقة، من الممكن للكاميرا أن تنقل لك صورة تلك المرأة، لكن لغتي لا تسعفني.

حسنًا يا خليل، دعني أختصر عليك، والدة سلمى عاهرة سابقة، باترونة حالية، شيء من هذا القبيل، حين شاهدتنا نقرب، كانت تجلس على مصطبة البيت، ترتدي قميص نوم وشعرها منكوش، في يدها سيجارة، أسنانها متآكلة ومنخورة، بدأت أحس بالخوف حينها، من غير المعقول لهذا الكائن البشع أن ينبج ذاك الكائن البديع، نقلت بصري بين سلمى وأمها، في الحقيقة كان هناك شبه في عظام الوجه وتدلي الشفة السفلى، بادرت بالصراخ في وجهها: «جايبة مين معاكي النهاردة؟»، لم ترد سلمى، ألقنت في حضن العجوز علبة سجائر سحبتها من جيب بنطالها

الجينز، ثم مضت وهي تشدني من يدي نحو الداخل.. هل وقعت في عصابة؟ لكنني لم أرغب بالفرار، كنت أحس بخدر لذيذ. سحبتني سلمى إلى إحدى الغرف، اقتربت مني وحاولت فك أزرار قميصي.

- لا.. لا، ليس الآن.

بدت مندهشة لرفضي، هي لا تعرف لم أتيت معها إذن، ولم أعطيها المال.

قلت لها: «يوم الخميس عندي في البيت».

هزت برأسها إشارة بالموافقة، قادتني من يدي لأغادر المكان. في الخارج كان يوجد رجل أسود ضخم الجثة يشبه السيف مسرور في «ألف ليلة وليلة»، لا أدري، أحسست بأنني رأيت من قبل، هل كان ضمن الذين تشاجرت معهم سلمى في الصباح؟ لم أتمكن من الجزم بالأمر، أشياء كثيرة تخيل إليّ منذ هذا الصباح.

اعترض مسرور طريقنا، وهو يلوح بيديه بجنزير حديدي ضخم، كان على وجهه أمارات شر وشراسة لا تخطؤها العين. قالت سلمى، إن هذا أخوها الأكبر. اقتربت منه وهمست في

أذنه بكلمات لم أسمعها.

مشيت معي في الطريق الترابي، وركبت التوك توك معي
أيضًا، ثم رافقتني إلى الميكروباص، حينها رفضت أن ترافقني
أكثر وطلبت منها العودة إلى بيتها.

خليل.. الحياة مملة بعد الخمسين أليس كذلك؟ لا، لم
ألتق سلمى مرة أخرى، أعطتني رقم هاتف لا يجيب. ومن
المستحيل أن أعرف طريق بيتها من جديد، كما أنه من
المستحيل أن يتكرر اليوم الواحد مرتين.

ثلاث ساعات قبل الرحيل

كان على أن أجده.. لم يبق أمامي سوى
ساعات قبل السفر، أين أبحث عنه؟ وليس
عنده هاتف في منزله، ويرفض حمل الهاتف
النقال، بحجة رفضه للعمولة.

رحت أستعرض أسماء أصدقائه الذين التقيت بهم، قد
يعرفون مكانه، وقفت على الرصيف، أمسكت بأجندة
الأرقام، طلبت رقم فؤاد، لأسأله عن يوسف، أكد أنه لم يره
منذ يومين، فكرت الاتصال بجمال، لكنني خجلت، فقد
كنت أحس بالضآلة أمامه بعد كلماته الأخيرة معي، واتهامه
لي بأنني تخليت عن يوسف، لأني كغيري أهت وراء المادة..
سأتصل بنادية، لكن هاتفها مغلق، وصلت إلى نهاية الشارع
وأنا أفكر كيف أجده؟

قررتُ إيقاف "تاكسي" والتوجه إلى شارع الحمراء، على
أن أودعه أيضاً، وأن أجلس في مقهى "المودكا"، رغم خلوه
من الزبائن في هذا الوقت.. ما إن دلفت داخل السيارة حتى
تعالي رنين هاتفي الخلوي على نغمة موسيقى "حبيبتي"، لينقل

لي صوت فؤاد قائلاً: "ليلي يوسف قد يكون في ساحة الشهداء، في الاعتصام".

لم أتردد لثوان، بل طلبت من السائق أن ينعطف بي إلى ساحة الشهداء، وسوف أضعف له الأجر.

"لا بأس"، تمتم السائق وهو يحدثني عن غلاء البنزين والأزمة الاقتصادية في البلاد.. يتكلم ويتكلم، فيما كنت أفكر بالطائرة التي ستنتقل في العاشرة مساءً لتتقلني إلى بلاد المناش. سأهجر شوارع بيروت العتيقة ومقاهيها التي تحتل أرصفة الشوارع، كي أمشي في الهارد بارك، وأبحث عن مقهى يقدم القهوة العربية.

- أين أبحث عنك يا يوسف؟

كيف أجذك وأنا لا أملك لك عنواناً سوى اسم شارع أخبرتني أنك تسكنه، حين حدثتني عن جارتك الساحرة "أم علي" التي يقصدها الناس من مختلف البلدان بحثاً عن حلول سحرية لأمرضهم الوهمية، حين وصلت إلى "ساحة الشهداء" وجدت جماعات من شباب وشابات معظمهم يضع الكوفية الفلسطينية، رغم انتماءاتهم المختلفة، كل شخص من

الموجودين كان يقف مع مجموعة.. أما أنا فكنت أسير وحدي بمحاذاة كل جماعة، أعبرها وأتجه نحو مجموعة أخرى، من بعيد لحت وجه "لارا" تقف بين جماعة من الصحفيين وبعض الطلبة، بدا عليها الانهماك في الحديث والجميع يستمع إليها، أحسستُ بارتباك شديد، وخشيت أن تلمحني، لأنها تدرك تماماً أنني لم أشارك في أي اعتصام أو مظاهرة طوال حياتي، وأنها رغم هويتها اللبنانية أجدها منشغلة مع القضية الفلسطينية وتعبر بانفعال عن كل ما يجول في داخلها من آراء.. أما أنا أغلي في الداخل، بلا أي حدث يفرغ ما يفور في أغواري السحيقة.

تحاشيت أن تلمحني "لارا" لأنها ستدرك أنني قصدت المكان بحثاً عن يوسف.. تراجعت، عدت إلى أطراف الشارع، مسيرتي بين الجموع لن تجدي نفعاً، وكأنني أيقنت أن يوسف غير موجود في هذا المكان، إذ لو كان موجوداً لابد أن يعلو صوته في هتافات متلاحقة، أو كان ليلقي محاضرة على كل هؤلاء الطلبة.

- رغبة حادة في البكاء انتابتنى، هل الله تخلى عني في رغبتني لقاء يوسف للمرة الأخيرة؟ سمعتُ أصواتاً تمس في

أذني بأني "أنانية" أطمع في كل شيء.. الوقت يمضي، وعلى أن أكون في البيت عند الساعة، كادت دموعي تنحدر، حائرة أين أذهب للبحث عنه؟!

لو مضت هذه الساعات بدون أن ألقاه فلن ألتقيه لسنوات، أحتاج لرؤيته، أحتاج سماع كلماته للمرة الأخيرة، يتلو على تعاليمه وإن كانت وهماً.

أعرف أنه يسكن في أحد شوارع الجامعة العربية، لكن في أي شارع تحديداً؟ وكيف أجد المنزل وليس لدي عنوان؟ من أسأل عن "يوسف العربي"؟ هل هذا اسمه الحقيقي الذي يعرفه به الجيران أم أنه اسم وهمي نعرفه به نحن؟ أتراه مثل والدي يغير اسمه كلما انتقلنا إلى سكن جديد مبرراً ذلك بعبارة "ضرورات أمنية"؟! قررت التوجه إلى شارع الجامعة العربية مهما كانت النتيجة، أوقفت سيارة تاكسي وصعدت فيها.. كانت امرأة عجوز تجلس في المقعد الأمامي إلى جانب السائق الذي كان يحدثها أيضاً عن غلاء الأسعار وكيف أن الغرباء خربوا البلد، كانا يستعيدان أمجاد لبنان في السبعينات أيام الماضي السعيد، كنت أنصت إليهما، وتراودني رغبة في سؤال المرأة العجوز التي بدت لي في غاية الأناقة والحزن أترانا

نحس بالحب حينما نصل إلى هذا العمر، أم أن الشيخوخة تقتل كل المشاعر، فلا يبقى لنا سوى الإحساس بالعجز والمرض وانتظار النهاية ؟

ابتلعت سؤالي، ورحت أتابع معهما أخبار لبنان القديم، حينما وصلنا إلى شارع الجامعة العربية، خمنت معالم الشارع الذي سار فيه يوسف، يومها كنا معاً، وافترقنا عند ذاك المنعطف وهو يشير لي بيده قائلاً: "بيتي في الشارع الخلفي سوف أتمشي قليلاً، هل تأتين معي" رفضت باستخفاف، بالحماقتي...! ليتني سرت معه ذاك النهار، أما كنتُ تخلصت من ضياعي وبحثي المجنون عنه الآن ؟

واصلت السير، ثم توقفت عند دكان صغير، بدا لي قديماً وصاحبه طاعن في السن، تمتمت في سري "إذن لا بد أنه يعرف جميع سكان المنطقة"، ملمت بعض ألواح الشوكولا لشرائها، بهدف السؤال، حين دفعت ثمنها وجدت نفسي أخلق حكاية وهمية عن فشل خطويتي الذي دفعني للبحث عن بيت الساحرة "أم علي".

همست لنفسي أنني إن وجدت بيت "أم علي" سوف

أجد منزل يوسف.. أستمع إلى الرجل.. وأكد أنه لا يعرف أم علي، لكنه سمع عنها، وأشار لي أن أتجه يمينا ثم يسارا، ثم أسأل في تجمع البنايات الحديثة الموجودة في آخر الشارع.. حينما وصلت حيثما أرشدني سألت أحد البوابين، فأكد لي خلو البنايات من أي ساحرة أو بصارة أو قارئة مندل، ونصحتني بالسير في شارع آخر.

- مضت علي ساعة من الوقت، وأنا أسير وأسأل وبلا فائدة، حتى أنني كدت أنسى أمر يوسف وانشغلت فعلاً في إيجاد بيت "أم علي" عليها تستبصر لي أين يكون يوسف في هذه اللحظة!؟

دفعني الإرهاق للتوقف أمام الصيدلية لأشتري حبوب البانادول، كنت قد بدأت أشعر بنوبة الصداع النصفي الذي طالما ألمّ بي عندما تضيق الدنيا في وجهي طلبت من الصيدلي كوباً من الماء لأبتلع البانادول، لكنه ابتسم معتذراً بأن مياه الشرب مقطوعة منذ ساعتين، ومن الأفضل لي شراء زجاجة مياه معدنية من الدكان المجاور.. خرجت من الصيدلية وأنا أمسك النقود في يدي، لا أعرف لمّ خطر لي التوقف لأحصي ما تبقي معي من مال، فجأة، في لمح البصر، يد قاسية

خطفت النقود من يدي وهربت، صرختُ، وأنا أحاول اللحاق به "حرامي.. حرامي"، لكن السارق الصغير، النحيف اختفي عن نظري ولم أبصر إلا الدرب الذي سلكه.. ركضت لأمتار قليلة محاولةً تتبعه، لقد عبر الشارع وابتعد، قررت عبور الشارع واللاحق به لكن صوت زمامير السيارات علا في رأسي مدوياً، وجدت موكباً من السيارات الفاخرة تتوسطهما سيارة سوداء ذات زجاج سميك وعازل، إنه موكب لشخصية مهمة، إذن يتعذر عليّ عبور الشارع إلا بعد مرور الموكب الجهول.. أحسست بالخذلان لأنني أيقنت أن السارق ابتعد تماماً وسيتعذر عليّ إيجاده.

الحمد لله.. إن كيس النقود لم يسرق بالكامل، ما سرق هو النقود التي أخرجتها، لكنها ليست قليلة، فحصت حقيبتي، وجدت ورقات مالية قليلة ما زالت موجودة.. عدت أسيراً كالمنومة إلى دكان لأشتري زجاجة مياه معدنية، وإحساس بالجفاف يكوي حلقي وقلبي.. وأنا أشتري المياه، عدت للسؤال عن بيت أم علي، لكن البائعة أجابني بتجهم شديد بأنها ليست من سكان المنطقة.

- خطواتي تتتالي بغير هدف وأنا أفكر عمن أسأل، عن

بيت يوسف، أم بيت أم علي ؟

غلبني إعياء شديد، وإحساس بالعجز، تجاوزتني سيارة حمراء صغيرة تسير بسرعة مرعبة، توقفت على بعد أمتارٍ قليلة، ثم نزلت منها فتاة شابة تحمل كيساً أسود كبيراً، ألقته في الحاوية ثم صعدت إلى السيارة، لتنتقل بالسرعة نفسها.

تابعت السير، أجر خطواتي الثقيلة، بعد أن سقطت عياني على حانوت للأقمشة قررت التوقف لسؤاله، لدى عبوري حاوية القمامة توقفت، لإلقاء قنينة الماء الفارغة، سمعت بكاء حادا، ينبعث من الحاوية، ورأس طفل حديث الولادة يمتد من ذات الكيس الأسود التي ألقته به الفتاة منذ قليل، ارتجفت أطرافي، وكأنني المسؤول عن إلقاء الطفل، أسرعت بالسير قبل أن يشاهدي أحد ويتهمني بالأمر.

حينما توقفت عند زاوية حانوت الأقمشة ترددت في الدخول، وخطر لي العودة إلى البيت، عدت باندفاع وسألت البائع عن "بيت أم علي" فأجابني بترحيب وابتسامة عريضة بأنها تسكن في المبني المجاور، ثم نادى عليّ شاب صغير ليرشدني إلى المنزل، سرت مع الشاب بضعة خطوات

وانتظرت ابتعاده لأصعد وحدي، لكنني وجدته يضرب على الإنترفون، ليخبر المرأة التي أجابته بأن هناك زبونة قادمة من السفر تحتاج لقاء "أم علي"، فُتِح الباب الحديدي المغلق، دخلنا ثم دلف الشاب معي إلى المصعد، وضغط على زر الطابق الثالث، خطر لي سؤاله عن بيت يوسف، أو إن كان يعرفه، لكنه راح يسرد لي عجائب "أم علي" وكراماتها الغريبة، وقفت أمام باب الشقة الخشبي الكبير لثوان معدودة قبل أن يفتح الباب، لأجد نفسي أمام امرأة ضخمة الجثة، أشارت عليّ بالدخول.

وجدت نفسي على بوابة صالون فاخر من الإستيل، حيث جلس في الزاوية رجل خمسيني يضع بجانبه كيساً أسود كبيراً، يتحرك من داخله حيوان حي، وفي المقعد الواسع جلست امرأتان إحداهما شابة في الثلاثين، أما الأخرى فقد تجاوزت الستين، اقتربت للجلوس في المقعد المجاور من السيدتين.

رحت أتأمل المكان، أشم رائحة البخور النفاذة، أشياء غريبة موضوعة على الأرفف، سلاحف ميتة، أسماك متحجرة، طيور محنطة، أصداف مختلفة الحجم، أغصان يابسة، زجاجات

شفافة مليئة برمال حمراء وصفراء، وكأن الأشياء تتحرك، والأرواح تسبح في المكان، وأنا منزوية مع نفسي أجهل السبب الحقيقي لوجودي في هذا المكان، بدا لي "يوسف" في تلك اللحظات كائناً هلامياً لا يستحق كل هذا العناء.

اقتطع تناسل أفكارني صوت المرأة العجوز وهي تشكو للمرأة الشابة حكاية ترملةا، وتربيتها لابنها الوحيد الذي تزوج وصار يهددها بإيداعها داراً للمسنين إن هي تدخلت في حياة زوجته، لذا قصدت "أم علي" لتعمل لها حجاباً للعطف والقبول تحنن به قلب الابن القاسي.

بدورها راحت المرأة الشابة تشكو للسيدة المسنة كيف أنها تزوجت من سبعة أعوام، ولم ترزق بالأطفال، وقد طافت عيادات الأطباء في باريس ولندن، بلا نتيجة وبدأت تقصد المشايخ بعد يأسها من حدوث الحمل.

تذكرت حينها الطفل الصغير الملقى في حاوية القمامة، ماذا حدث له الآن يا ترى بعد مرور ساعة من الوقت؟ أتراه مات؟ أم أنه مازال حياً؟ هل أنقذه أحد؟ يا لتخاذلي لماذا لم أتوقف عند أقرب مركز للشرطة وأخبرهم بما رأيت؟

- لو أن يوسف عبر المكان وسمع صراخ الطفل أكان منقذه وليحدث بعدها ما يحدث؟

ارتفع صوت المرأة الخمسينية وهي توجه الحديث لي
قائلة:

وأنت يا ابنتي ما قصتك ؟

رحت أردد بلا وعي: "الطفل.. هناك في حاوية القمامة
يجب أن نخرجه .. لا لا يمكن".

تمت المرأة العجوز للصبية وهي تضرب كفاً بكف..

مسكينة لا بد أنها ممسوسة.

ظهرت الخادمة التي فتحت لي الباب، استدعت الرجل،
الذي غاب هو وكيسه ليخرج بعد عدة دقائق ويغادر المكان
من غير الكيس.

عادت الخادمة واستدعت المرأة العجوز، فبقيت وحدي
مع المرأة الشابة التي بدت منكمشة وهي تحاول ألا تنظر
نحوي، لم تتأخر المرأة العجوز أكثر من عدة دقائق، لتخرج
حاملة كيساً صغيراً لا يظهر ما بداخله، عادت الخادمة

لتستدعي المرأة الشابة، وتبتسم لي لتطمئنني أن دوري هو التالي، وجدت نفسي أقف فجأة وأفكر في مغادرة هذا المكان والصعود إلى الطابق الرابع للبحث عن شقة يوسف، لكن الخادمة بجنتها الضخمة، استدعتني للدخول إلى غرفة "أم علي" سرت عدة خطوات لأجد نفسي وجهاً لوجه أمام سيدة في الخمسين أو أكثر، ممتلئة الجسم تضع منديلاً على رأسها، وجهها خال من أي نوع من الأصباغ، لكن بشرتها مشدودة وتلمع ببريق من كثرة العناية والاهتمام.

أشارت علي بالجلوس وهي تبتسم لي بود، وتتمتم بكلمات وأدعية لم أفهمها كلها، عادت الخادمة للظهور لتقدم لي كأساً من العصير، خشيت أن ألمسه، لكني وجدت أم علي تحثني على شربه، مؤكدة أنه ليس علي أن أخاف أبداً، أحسستُ بالاضطراب وكأنها قرأت ما

- أفكر فيه، أتراها تعرف أيضاً أنني أتيت بحثاً عن يوسف؟

- ما حكايتك يا بنتي؟

تعالي صوت أم علي واثقاً مشدداً علي كلمة "حكاية"

"حكايتي"، أي حكاية وهمية أختلقها في ثوان؟! هناك "خطيب سأسافر إليه ورجل آخر أحبه، وهناك.. وهناك" لا أدري ماذا قلت تحديداً، لكنها كانت تستمع إلى باهتمام، ورغم ذلك أحسست أنها لا تصدقني، ثم فجأة نادى خادمتها همست في أذنها عدة كلمات، لتعود ومعها زجاجة من الماء ومبخرة مشتعلة، راحت أم علي تقرأ وتهمس وتتمتم، لتطلب مني في النهاية أن أغتسل بهذا الماء ثم ألقيه في مكان طاهر، ثم أشارت عليّ بالانصراف.

خرجت من غرفتها، ويدي زجاجة الماء، سرت نحو الباب الخارجي، وجدتُ الخادمة تقف أمام الباب وتطلب مني مبلغ عشرين دولاراً، فتحت حقيبتي أبحث عن النقود لم أكن أملك إلا أجرة السيارة.. تذكرت حادثة السرقة وهزرت رأسي نفيماً بأنني لا أملك مالا الآن، وضعت الخادمة يدها على الباب مؤكدة أنني لن أخرج من هنا إن لم أدفع.. لكن عليّ المغادرة، عليّ اللحاق بطائرتي، اقترب موعد الرحيل، وضعتُ يدي على رقبتني، تلمست السلسلة الذهبية التي تضم خارطة فلسطين، تلك التي أهداني إياها يوسف في عيد ميلادي الأخير، خلعتها وأنا أسلمها للخادمة، وأتمتم "خذي

هذه لا أملك سواها". خرجت من البناية، وأنا أستعرض
مامري، أوقفت أول سيارة تاكسي وأنا أردد بخيبة "شارع
المطار".

٢٠٠٢/٩/٤

عيد ميلادي

تريدين إجراء حوار معي لا.. لا أستطيع اليوم،
إنني أحتفل بعيد ميلادي هل تصدقين أنها المرة
الثانية في حياتي التي أحتفل فيها بعيد ميلادي؟
المرة الأولى كانت منذ خمسين عامًا عندما كنت في
العاشرة قبل أن تموت أمي، يومها عدت من
المدرسة غاضبًا لأن صديقي قال لي إنه سيحتفل
بعيد ميلاده، بكيت وسألت أمي عن عيد ميلادي
وأمام صراخي وبكائي الشديد صنعت لي بمساعدة
جارتنا قالبًا من الكيك وغنوا لي أغنية "عيد
الميلاد" لإسكاتي، مع أنه لم يكن يوم ميلادي.

اليوم زوجتي الثالثة "سيلين" ذات العشرين ربيعًا، تصر
أن تحتفل بعيد ميلادي، مع أنها كذبت علي يوم تزوجتها
وقالت لي إن عمرها عشرون عامًا لاكتشف فيما بعد أنها في
الثامنة عشرة لكن لا يهم.

- لماذا تريدين إجراء حوار معي؟ تريدين أن تعرفي لماذا
أصير على دخول عالم السياسة الآن بعد الستين، رغم أنني

طبيب ناجح جدًا ورجل أعمال مشهور؟ ربما لأن المال يفرض السياسة، لا العكس، ليكون بمعلوماتك أن رجل الأعمال الناجح والذكي لا بد وأن يسعى لاحتلال منصب سياسي هام، لأنه الأجدر بالحفاظ على مصالح البلاد، أليس كذلك؟ كيف حققت هذه الثروة، والمليارات المكونة في البنوك؟ وكيف جمعت بين الطب والبنس؟ لا أدري صدقيني لم أعد أستطيع التذكر، أنت تعرفين مشاكل السن، والزهايمر لقد بدأ يعرف طريقه إلى ذاكرتي هل حكيت لك عن زوجتي الأولى "أمينة" لا .. لا تكتبي، انتظري، أريد أن أقول لك شيئاً مهمًا عني.. أنا لا تلفت انتباهي إلا النساء المميزات جدًا، والخارقات جدًا، والساحرات جدًا، كيف؟ سأخبرك الآن. "أمينة" كانت معي في كلية الطب لكنها كانت ترسب كل عام، ليس لأنها غبية لا.. لا "أمينة" ذكية جدًا، وإلا ما كانت خدعتني وكسبت من ورائي الملايين وأسست مركز التجميل الخاص بها.

"أمينة"

كانت شاهقة البياض وتضع روجًا أحمر فاتحًا، لكن بياضها لم يكن يعجبني، كان يعجبني امتلاء مؤخرتها ونحول

خصرها الشديد، وفوق ذلك كانت ثرية، لكن والدها خسر أمواله كلها في البورصة وأشياء أخرى. بعد تخرجي، "أمينة" هي التي ساعدتني لأحصل على أول قرض من البنك لتأسيس المستشفى الخاص بي، لكن حتى الآن لا أعرف كيف استطاعت أن تجمع كل هذه الأموال من وراء ظهري لتبدأ مشاريعها الخاصة بعد أن علمت بزواجي من طبيبة الجراحة الإفريقية "ساندي". آه "ساندي" إنها زوجتي الثانية، تعرفت إليها في إحدى السفريات، لا هي ليست إفريقية، والدها عربي أنجبها من علاقة غير شرعية مع خادمتها الإفريقية، وجاءت البنت نسخة مطابقة من أمها، لذا الجميع يقول عنها "إفريقية".

تعاطفت مع حكاية ساندي، لأن قصة والدها تشبه ما حدث معي في اليونان خلال علاقتي مع المغنية القبرصية "كارمن"، هي أيضًا أنجبت مني طفلة جميلة شقراء تشبهها كثيرًا، لكنها أصرت على الاحتفاظ بها، رغم عرضي أن أحمل الطفلة معي إلى بلادي، لكنها أصرت وأنا قبلت، لأنني أنحاز للأمومة دائمًا، ألا توافقيني؟ "ساندي" كانت سوداء كالمسك، سأقول لك شيئًا إنها تشبه عارضة الأزياء الشهيرة

"ناعومي كامبل"، إنها رائعة أليس كذلك؟ لا أستطيع أن أصف لك ذكاء ساندي ومهارتها في العمل، لقد تعلمت منها أن الطب مهنة خطيرة جدًا، وإنسانية جدًا يمكنني أن أجمع منها الملايين، كيف؟ لا أستطيع أن أحكي لك الآن، قلت لك منذ البداية إن اليوم هو عيد ميلادي وعلي الذهاب باكراً لأن "سيلين" تنتظرني، لكن "ساندي" كانت مذهلة صدقيني، مساءً بعد أن تشرب عدة كؤوس تبكي كثيراً وتذكر كيف كان أصدقاءها في المدرسة يعايرونها بأنها "ابنة الزنجية". كنتُ أضمها، وأطلب منها أن لا تبكي لأنني أحبها كثيراً. علمتني كيف أستفيد من الطب لأخدم البشرية عن طريق إنشاء عدة مستشفيات لبيع الكلى، والأعضاء الأخرى، وعلاج الناس وإنقاذهم من الموت. هل تعرفين؟ رغم انفصالنا أنا و "ساندي" إلا أنها اتصلت بي البارحة تعرض علي الدخول معها شريكاً في مستشفى جراحات تجميل اليوم الواحد، ما رأيك؟ هدفنا أن لا توجد امرأة قبيحة على وجه الأرض، ألا تلاحظين أن معظم النساء أصبحن جميلات هذه الأيام، إنها صنعة الجمال، والله جميل يحب الجمال. فكرت في الاتصال بزوجتي الأولى "أمينة" أيضاً لأعرض عليها أن تضم مركزها إلى المستشفى الذي سنقوم بإنشائه ما رأيك هل

ستقبل؟ ستكون فرصة جيدة لأستعيد أموالى التى هربتها من وراء ظهري.

"ساندى"

قالت لى إنها ستنشئ فرعًا خاصًا بالرجال، على غرار مراكز التجميل الأوروبية، لكن هذا الفرع سيلحق به قسم خاص للعناية بفحولة الرجال وإعادة حيويتهم الجنسية خلال أسبوع من الرعاية واتباع نظام صحي وغذائي معين، ما رأيك؟ والانتخابات، نعم قررت ترشيح نفسى للانتخابات ومن يكون أحق منى للفوز، لقد خدمت الناس كثيرًا، وعالجتهم فى المستشفيات والمستوصفات التى أملكها وقدمت لهم أدوية مجانية.. كيف تجرؤين على قول ذلك؟! سيدة ماتت بانفجار الزائدة الدودية على باب أحد مستشفياتى، من قال لك ذلك إنها إشاعات لا أكثر، ماذا أيضًا؟ المرأة التى لم نعطيها لترًا من الدم قبل أن يدفع زوجها مبلغ التأمين، هذا هراء، و"الطفل والعجوز، و.. و.. كنتُ أعرف أنك سترهقيني، أنت تثرين كثيرًا. قلتُ لك إن "سيلين" تنتظرني، وأنه يوم ميلادى، هل تعرفين أن العمر الافتراضى للإنسان الآن هو ١٥٠ عامًا، وأن هناك أدوية لتجديد

الخلايا، والمحافظة على الأعضاء لتظل سليمة وعفوية كما في سنوات الصبا الأولى.. أنت مثلاً بإمكانك أن تظلي شابة وجميلة كما أنتِ الآن لو حافظت على بعض القواعد الصحية والغذائية السليمة التي تضمن لكِ نضارة بشرتك، وجمال شعرك، وانسيابه. أخبريني، هل هذا لون شعرك الطبيعي أم أنه مصبوغ؟ أقصد هل هو أسود فاحم في حقيقته؟ حين تزوجت سيلين أقنعتني أن شعرها الأصفر لم يعرف الأصباغ أبداً، لأكتشف فيما بعد أنها خدعتني هي أيضاً، تصوري لقد سمعتها تقول لأختها على الهاتف إنها لا تستطيع احتمالي، ولا تطيق أنفاسي ورغم ذلك مازلتُ احتفظ بها. أنا إنسان لم يعرف الحب يوماً، لقد ظلمتني الحياة كل نسائي طمعن بي وبما أمتلكه من أموال ولا واحدة منهن أحببني لشخصي، مع أنني كنتُ كريماً جداً معهن، أنا تعيس جداً في حياتي، ومعذب، لم أعرف السعادة والراحة أبداً، لم أحتفل بعيد ميلادي منذ كنت في العاشرة من عمري قبل وفاة أمي بعامين، لا أعرف ماذا تريد سيلين مني اليوم؟ صحيح لقد طلبت مني أن أمر على محل المجوهرات قبل أن آتي إلى البيت، قالت لي إن مسيو جورج يريد الكلام معي بشأن.. بشأن لا أذكر تحديداً، لكنني لن أمر عليه.

أنا حزين الآن، وأحس بالكآبة أعرف أنها تستغلي وأنها
تريد الزواج من ابن خالتها الشاب الوسيم، لكن أدوية
الحفاظ على الخلايا تساعدني في الحفاظ على شبابي أيضًا
أليس كذلك؟ قولي لي ألا يبدو عليّ الشباب؟ وأنت ألا
تريدين الحفاظ على شبابك؟ هل أنت مرتبطة لا أرى في
أصابعك خاتمًا، يبدو أنك عزباء هل تتزوجيني؟

تحلم البنت وهي تجلس أمام الشباك أنها ستنزول للشارع. ذات يوم و تسير مع أحد ما، ربما تكون مع شاب وسيم يشتري لها الأيس كريم، ويأخذها بعيدا عن هذا الشارع. البنت وهي تتأمل عابري الطريق تحس بدغدغة خفية وخيالات كسولة لا يضاهيها كسلا إلا خروج والدتها من غرفة النوم ليلا، بجسدها المنفوش الذي يغطيه قميص نوم من الساتان الرخيص يصلح حجمه ليكون غطاء لمائدة الطعام.

تدخل أمها إلى الحمام لتستحم، يدهشها هذا الحمام الليلي الذي يتكرر مرتين أسبوعيا. منذ تركت المدرسة قبل عامين عندما كانت في الثالثة عشر من عمرها وهي لا تغادر البيت إلا برفقة أمها لزيارة جدتها البعيدة أو لاصطحاب أحد أخوتها الصغار إلى الطبيب، اعتادت البنت على غسيل الثياب كل أسبوع، وتنظيف أواني الطعام بعد كل وجبة، ومسح أرضية الحجرات بعد ذهاب أخوتها إلى المدرسة.

تجلس الأم برفقة الجارات تعد هي هن القهوة، يهمسن بنكات وأحاديث سرية، ما أن يشاهدنها تقترب حتى يتغامزن إشارة للصمت، ما الذي كن يبحن به لبعضهن؟ تحكي إحداهن عن تأثير وصفة العسل بالجوز وإتيانها بالنتائج الفعالة، فيما تصف أخرى مفعول قميص النوم البرتقالي على قلب الرجل، أما أمها فكانت ترفع صدرها إلى الأمام وهي تمز خصرها الممتلى لتقسم أن زوجها لا ينام الليل إن لم تكن في أحضانه، وأنه لا يقدر علي زعلها ساعة واحدة، تتبارى كل امرأة في الحديث عن هدايا الزوج وعطاياه السخية، فيما امرأة أخرى تشكك بالكلام فتذكر الأولى أنها حكّت لهم هذه الحكاية الأسبوع الماضي.

تركهن البنت غارقات في أكاذيبهن، يفتشن في الذاكرة عن أيام هوى راحل قبل أن تسمن الأجساد، تنغضن الوجوه، وتمتلى الأرحام بالأطفال. تسرع هي إلى الشباك العريض، تجلس على حافته، يظهر الجزء العلوي من جسدها الممشوق، صدرها بارز، كتفاها مشدودان، شعرها مربوط إلى الخلف على شكل ذيل حصان، عيناها تتسعان أكثر لمراقبة كل من في الشارع.

البنّت تحفظ مواعيد العشاق، ومواقيت قدومهم لرؤية محبوباتهم، تربط الوجوه بالأيام. هناك عاشق يأتي كل يوم اثنين يتمشى مدة خمس دقائق قبل أن تنزل ابنة الجيران، ليسير خلفها كما لو أنهما لا يعرفان بعضهما، فيما آخر يأتي الخميس بسيارة بيضاء يعبر الشارع مطلقاً زموراً صاحبا، قبل أن تطل صاحبة الشعر الأشقر من الشرفة المجاورة، لتوافيه إلى الشارع بعد دقائق قليلة.

وجه أسمر يراقبها، يبتسم لها، يشيح بيديه كلما رآها تجلس على الشباك، تبتسم له، تتلهى عن مراقبة العشاق لنتنظر وجهه البرونزي وعيناه الخضراوان، يومئ لها أن تنزل، تهمز رأسها بالنفي، تعلوه أمارات الغضب لكنه يعود في اليوم الثاني ليبتسم لها ويلوح بيديه يدعوها للنزول .. يسير نحو المبنى الذي تسكن فيه، يدخل من البوابة، تخاف أن يفتضح أمرها، أن يدق عليهم الباب، ويسأل عنها.

تسرع البنّت بالنزول عبر السلم .. تراه أمامها على الأدراج المعتمة، لأول مرة وجها لوجه .. تقلصت كتفها، رغبة في الهرب .. يداهما، يمسكها من كتفيها، يقبلها سريعا على وجهها ووجنتيها، ثلاث قبلات متلاحقة وسريعة .. تميد

بها رعشة غريبة، رعشة ما عرفتھا من قبل، تشعل كل ما فيها.. نشوة سرية تفوق حلاوتھا كل القصص التي تراھا تجاوز الشباك، تعبر دغداغھا أوھام النساء وحكاياتھن المتخيلة.. تفلت من یده، تصعد إلى فوق، تحاول الجلوس في الشباك، لكنه لا يأتي، لم يعد يأتي منذ منحھا تلك الرعشة، وهي لم تعد تطيق صبرا، تريد مزيداً من الرعشات، لكنه لا يأتي لا يأتي أبدا.

تدرك البنت أنها لن تحصل بسهولة على تلك الرعشة، عرفت أيضا أنها إن تزوجت سيكون من نصيبھا ربما آلاف الرعشات، هذا ما فهمته عندما استرقت السمع لأحاديث النسوة.

عندما طرق بابھا أول طارق، وافقت بفرح، لم تكن تعرفه، ولم يكن يعرفھا، وافقت لأنھم قالوا إن هذا هو الطريق الوحيد للرعشة المسموحة، لكن البنت بعد انتقالھا للحياة هناك، وبعد أيام وأعوام، مازالت تجلس قرب شباك آخر، تنظر إلى الشارع، وتتساءل لماذا لم تحصل على تلك الرعشة مرة أخرى؟

اعتراف

حسنا يا "لنا" ..

ها أنا أفاجئك من جديد بما كنت تحشينه، أبين
في عالمك مرة أخرى لأكشف الحقائق وأعلن
أمام الجميع أنني ما زلت حية، متمردة على
علب الصفيح الأسود التي عبأتني فيها لتلقين
بي إلى البحر عبر حبل كلماتك الذي ربطتني
فيه حتى حين.

أنا هنا الآن لأصرح أمام جميع من قرأ قصتك
وأقول: "إنك كاذبة" وإنني لم أمت، وإنك لفقت حكاية موتي
في بدعة درامية لنهاية قصة قصيرة لم تعطها كل الأبعاد، ولم
تكشفي فيها كل الحقائق كنت جاسوسة متنكرة لكنني لم
أشك أنك ستسرقين عوالمنا لتخبئها في جيوبك السرية، فيما
ظل عالمك قصياً عنا، توهميننا أنه دان لكنك أبداً، ما كنت
بتلك السذاجة وما ظننت أننا بذاك الوضوح الذي يدفعك
لكتابه قصصنا، بحيل متنوعة وبحفة عاشق متلهف، كنت
تعرين ذاكرتي، لتكتشفي ألوانا مجهولة وثيابا من أقمشة لم

تكتشف بعد، تغطي أكثر أحزاني حميمة والتصاقا بالماضي.

ظهرت في حياتي فجأة ثم اختفيت ثم عدت قائلة إنك ستسافرين وحين أبديت دهشتي قلت إنك ستتزوجين وتغادرين إلى مصر، حدقت في وجهك لثوان ما كنت لأصدق كلماتك. ظننتك تمزحين، لكن وجهك بدا هادئاً وخالياً من قلق المسافرين.

لا أعرف كيف صدقتك حين قلت لي مرة إنك لا تفكرين بالزواج وأنت لا تستطيعين مغادرة بيروت، لأنك وبيروت مثل السمك والبحر المتوسط.. حتى في هذه العبارة كنت تكذبين علي لإيهامي أنك باقية هنا، وأن بوحى لك لن ينتهي ورغم ما كان في ذاك البوح من سلوي بالنسبة لي ومن مراوغة ممتعة في زيادة الحكايا ونقصانها إلا أنني لم أخمن أبداً أنا أجد نفسي ميتة بين دفتي كتابك في قصة سميتها "مرايا مكسورة" وصديقنا المشترك "وائل" الذي كان سبب تعارفنا كيف وثق بك ليحكى لك حكاية حبه الضائع لتضعيها في حكاية تسميها "ضريح لرماد الذاكرة" لم يسلم من خيانتك أحد منا، نحن الذين ائتمناك على أوجاعنا ومسرانا بدون أن يخطر لنا من أنك ستخذين منا لعبة تشبه

معجون الأطفال تشكيله على هواك، حتى تلك الطفلة المسكينة "موحا" التي حكيت لك قصتها وجدتها تركض على أوراقك تتعثر بدمها النازف على الأسفلت.

عبثا رحلت أبحث عن ملامحك في كتابك، لكنني آسفة أعترف الآن أنني لم أعرفك جيدا، كما لم تعرفيني لذا لم أتمكن من إيجادك كما لم تتمكني أنت من اختيار نهاية حقيقية لحياتي تفنن قارئك.

هل حدث أن واجهك أحد قبلي بكل هذه الحقائق؟ وهل حدث أن تمرد على سطوة اختياراتك غيري أنا الفتاة العنيدة التي سرقت من حياتها شطرا بنيت عليه أوهامك. ربما لو قرأ وائل ما كتبته عنه لصرخ في وجهك أيضاً "إنك كاذبة" وإن الحكاية لم تحدث أبدا كما كتبتها، ولقال إنك مخلوقة ضبابية عدمية، مشكلة من وهم، لك جسد حي يحاول حصر روحك الشاردة دائما في أفق آخر تعرفينه وحدك، لكن "وائل" ليس هنا، لقد غادر إلى السويد متسللاً بعد يأسه من الحصول علي إقامة شرعية في لبنان، واستحالة عودته إلى العراق. أين هو الآن؟ وهل من المعقول أنه رجع بعد دخول أمريكا للعراق؟

هل تذكرين "وائل" وكيف بكى يوم قُتِل الأطفال في
ملجأ العامرية؟ لماذا تنكرت لدموعه التي سالت أمامك يوماً،
واكتفيت بفضح ما لا يصدق عنه، يومها قال لك إنها حكاية
قديمة حدثت له بعد رجوعه من حرب إيران، لكن ربما غاب
عنه مطالبتك بصك أمان أبدي لسكتة قلمية.

لماذا بدأت حكايتي بجملة تصفهم؟ لم لم تبدئي من
حكايتنا معاً؟ لم لم تبدئي من أمسي أولاً؟ كان بإمكانك أيضاً
البدء بهذه الحكمة المأخوذة من واقعنا معاً فتقولي: "في شهر
مارس الذي تعتبرينه شهرنا المشترك لأننا ولدنا في ثالث أيامه،
كنت أسير معها على شاطئ المنارة، في يدها كتاب شعر
لمحمود درويش تقرأ لي مقاطع منه. حينما نجلس على المقعد
الحجري لنشرب الكابتشينو الساخن في أكواب بلاستيكية
،نغم صوتها يتكسر مع الأمواج في لثغها لحرف الرءاء قائلة:

"لماذا نحاول هذا السفر

وقد جردتني من البحر عيناك؟

واشتعل الرمل فينا

والكلمات التي لم تقلها تشردنا

لماذا نحاول هذا السفر

وكل البلاد مرايا وكل المرايا حجر؟"

بعدها كانت تشرد عينها بالبحر الأزرق وتبدأ في سرد
حكايتها منذ غيابه.

لماذا لم تختاري هذه البداية وتحكي عن مشوارنا
الأسبوعي على الشاطئ حين اتفقنا على لقاء الأحد لأنه يوم
عطلتنا الذي بإمكاننا قضاء ساعات الصباح الأولى منه
للاستمتاع برحيق المتوسط ومراقبة محبيه من شبان وعجائز.

ألا تذكرين كم من المصادفات والذكريات الحلوة حدثت
معنا؟ لكنك لم تذكرني إلا البحر الذي رأيت فيه مكانا
مناسبا لدفي. لكن دعك من هذه البداية الرومانسية إذ ربما
كان بإمكانك تقمصني للقول عبري بواقعية: منذ رحيله صار
أقاربنا يعتبروننا كائنات فطرية يحسنون إليهم ببعض المال في
الأعياد والمناسبات السعيدة حتما لم يكن ذلك ليكفي ثلاثة
أفواه وأم همها الوحيد استكمال تعليمنا في ظن قطعي أن
الشهادة الجامعية سلاح أكيد ضد الجوع والفقر بدون أن
تدرك أن الشهادات الجامعية لا تؤمن لحاملها ثمن الخبز، لذا

ظلت تعيش في زمن السبعينات وظللنا أنا وهي نصنع
الخلوى ونبيعها لأصحاب المعامل وكلما رفضوا شراءها
أذهب إليهم لإقناعهم بجودتها فيشترون خلوى.

لم يكن بإمكانني تركهم جوعى، ولا ترك أصغرنا تهدده
"التلسميا" كل أسبوع، وأمه تدوخ على أبواب وزارة الصحة
والجمعيات الخيرية تطلب معونة. لم يكن بإمكانني كسر حلمها
وحلمه قبل موته بأن يراني طبيبة.

لا بأس لو أنك أدخلت مسحة سريلية لتضفي على
النص أبعاداً متخيلة فتقولي عبري أيضا "رأيت أمامي وحوشا
آدمية فقدت مسحتها البشرية وتحولت إلى مسوخ شيطانية
لدرجة دبقة لا يمكن مسح ما يعلق منها بسهولة من هنا
بالضبط كانت بداية كل ما فعلت، حيث علقت المسوخ بي،
وبدوري صرت أتحول وأتحول".

لا أعرف يا "لنا" لمّ لم تجملني النص أبدا وأخذت من
الحكاية ربعها الأخير، ولم تحكي عن العرافة التي التقينا بها
على الشاطئ وتنبأت لي أنني سأصبح ثرية، وقالت لك إنك
ستسافرين كثيرا وإنك ستكذبن بالحكايا، لكنك ستظلين

منزهة عن أي غرض إلا أوهامك، فعلا وقع هذا، وها أنا
الآن ثرية أستمتع بكل ما لدي من مال، هل تعرفين أنه
بإمكاني شراء كل كتبك والاحتفاظ بها أو حرقها، فقط لأؤكد
لك أنني لم أمت وأنني أكتب إليك من عالم الأحياء.

لكن كيف وصفتك العرافة بأنك منزهة عن أي غرض؟
يا لقدرتها على قراءة باطنك. أما أنت فقد سخرت منها بأنها
تقول هذا الكلام لكل الناس، لكنني وحدي أيقنت أنك
منزهة حتى عن غرض الاستماع للحكايا، تنصتين بإصغاء
لكنك تدعين اللامبالاة، وتبدعين حكاياك تاركة الآخر يبحر
في محيطه الخاص ليعود لك باللالئ فيما أنت تحلمين ببراءة
تحت مظلة شاطئك. لكن لماذا لم تتحدثي عنه؟ لماذا لم
تكشفي مذكراته التي أعطيتها لك؟ هو أبي ورفاقه المناضلون،
لماذا حكيت حكايتي أنا ولم تقولي أنه كان يحلم بالعدالة،
وبتشكيل وطن عربي جديد لا يحمل تأشيرات حزن تفرض
فراق أبنائه أو قتلهم بمقصلة الغربية.

كان يتوارى من شبح الفقر في معمله الصغير، يصنع
قوالبه صباحا، يبيعهما ويقبض ثمنها ليفر مساءً إلى جلساته
السرية في العمل السياسي. بالنسبة له كانت متعة خفية،

عشيقة سرية لا يستطيع الاستغناء عنها أبداً إلى أن قتله
هواها.

آمنت بعد غيابه بسنوات أن مجتمعنا ينظر للمرأة
الوحيدة على أنها مكسورة الجناح، وللفتاة على أنها صيد
سهل قال لي ابن أخيه الذي أحبني ونحن أطفال إنه لن
يستطيع الزواج مني لأنني مسئولة عن أمي وأخوتي، وإنه يريد
زوجة تتفرغ له وحده. أما زميلي في كلية الطب صاحب
الوجه الذي يشبه الفقمة، فقد بكى بعد زيارتنا هو ووالدته
وقال لي إن أهله سيفرقون بيننا لأنهم عرفوا "أنني مش من
عيلة" أي لست ثرية.

طبعاً هو لم يقلها لي كذلك، لكنني أحكي لك خلاصة ما
غاب عنك، ذاك الغبي كان يظنني ثرية لأنني كنت أستأجر
ملابس من جارتنا التي تعمل في محل للألبسة وأعيدها بلا
معرفة صاحب المحل. كنت أرتمي أفخر ماركات الألبسة
مانغو، زارا، كوتشي، لكنني كنت أقع في مشكلة الأحذية
والحقائب لذا أتحايل في تبديلها باستمرار.

أكتب لك كل هذه التفاصيل الآن لأؤكد لك أنك كاتبة

عادية، وأن مخيلتك لن تأتي على كل حكايتي فمازال لدي الكثير مما لن تعرفيه أبداً، لأني لم أقدم لك إلا طعماً دسماً مفتاحاً لوجبة شهية مدركة تماماً رغبتك في كشف عالمي الغريب عنك. منذ اللحظة الأولى التي التقينا بها في بهو الجامعة الأمريكية وعرفني بك وائل على أنك صحفية وكاتبة، وقدمني لك على أنني أدرس الطب في سنتي الأخيرة وهاوية للشعر وأسكن في ضاحية بيروت الجنوبية، تخيلت أنه لمع في عينيك تساؤل عني وكأنك تكشفين تناقضتي.

لكن بعدها صرنا صديقتين وجئت لزيارتي في بيتنا القديم. حكيت لك الكثير عني، وعن "فادية" رفيقتي التي لا أستغرب وجود حكايتها في مجموعة قصص أخرى تقومين بكتابتها، وعن مدير المستشفى العجوز المتصالي المغرم بالشابات، ألقيت حكايا في جعبتك بلا ظن أنها ستصل بأصحابها إلى خطر الموت أو الجنون أو الهوس حبا ولم أعرف أنك تكتبين لتنسي وتتواري خلف ذاكرة مستعارة.

لكنك لن تطمئني أبداً، ستحيين في قلق بلا نهاية. أنا مازلت أحيأ لمواجهتك، لكشفك أمام الناس أنا هنا لأقول لك إنني الآن طبيبة مشهورة، وفتاة ثرية، عيادتي قريبة من

الشاطئ الذي كنا نسير عليه يوماً، عمي قال لي منذ أيام إنه اختار لي عريسا قادمًا من أمريكا، طبيباً مثلي يريد زوجة من وطنه، فتاة محافظة يكمون معها عائلة، وأنا لم أقل شيئاً لأنني مازلت أحس بالزوجة التي تعلقو داخلي، أحتاج للاغتسال بماء البحر، لذا سأبقى هنا أنتظر موتي على الحافة خشية أن تبتلعني الأمواج لو حاولت الاغتسال فأترك لك أملاً تصدق فيه نبوءاتك.

الكنار مازال يغرد

استيقظت عقب أذان الفجر لتكمل أعمالها،
العيد سيحل بعد يومين عليها أن تنظف جميع
حجرات الفيلا وأن تجمع الستائر لتغسلها
وتعلقها من جديد أيضاً، يجب أن تشارك
سيدتها في صناعة الكعك. ارتفع صوت فوزية
الخادمة الكبيرة، تنادي عليها بكلماتها
المعتادة:

- موحا، يا كسولة، أما زلت نائمة وأنا بدأت العمل،
قومي نظفي الجنيينة، ورشي الماء على الزرع، واجمعي الأوراق
الذابلة.

الطقس بارد في الخارج والهواء محمل بالمطر والرياح،
عندما قامت موحا إلى الحمام بشعرها المنكوش وثيابها
القطنية الخفيفة، لم تغسل وجهها بل أخذت "الدلو"
المخصص للجنيينة فملأته بالماء، وحملته مع المقشة ومقص
العشب.

كانت تسير ببطء لا يتلاءم مع سنواتها الثلاثة عشرة تجر معها آلام الروماتيزم الذي بدأ ينخر عظامها باكراً، هناك وجع آخر في أسفل بطنها جعلها تتلوى وتضغط أحشاءها إلى الداخل، لكنها لا تجرؤ على الكلام أبداً. عليها أن تنتهي من تنظيف الجنيونة كي تغسل سيارة ابن سيدها لقد أوصاها بغسلها البارحة حينما رجع متأخراً ليلة أمس.

كانت تغسل الصحون، وتضع الصابون على أرضية المطبخ كي تشطفه، فتح الباب بمفتاحه ودخل، جميع أفراد العائلة ناموا، السيدة الكبيرة تدخل إلى سريرها في العاشرة مساءً، وقد سمعت "موحا" أنها تفعل ذلك كي تحافظ على نظارة وجهها. أما أختها "سارة وسلمى" فقد استسلمتا للنوم باكراً بعد أن طافتا طيلة النهار على المحلات لاستكمال الحاجات الخاصة بزفاف سارة.

تقدم ابن سيدها إلى المطبخ، داس بقدميه الموحلتين على البلاط الغارق بالماء والصابون فظهرت بقعة بنية اللون من الوحل، فتح الثلاجة أخذ زجاجة من البيرة وهو ينظر إلى موحا ويقول:

- ألم تنتهي من عملك بعد يا عرجاء. أجابته بخوف.

- لا يا سيدي بعد قليل سأنتهي.

اقترب منها، أمسكها من ذراعها، ويده الأخرى تقرص صدرها، ثم راح يتفوه بكلماته التي حفظتها موحا دون أن تدرك مغزاها:

- انتهى من عملك يا وسخة، قدرة كوالدتك التي تركتك على باب الكنيسة.

رددت موحا كلماتها جملتها الوحيدة.

- حاضر يا سيدي أمرك.

- هيا انتهي، عليك أن تغسلي سيارتي صباحاً، يجب أن تكون نظيفة قبل طلوع الصبح.

- تمت.

- أمرك.

برد الليل كان ينخر عظم ساقها، وقدمهاها ساجتان في الماء البارد الذي يملأ الأرضية انتهت من غسل الصحون، ثم

بدأت تجفف الأرضية. حينما أتمت عملها، سارت إلى غرفة الخدم التي تقطنها مع "فوزية" و"هند" عبرت الممر المعتم لتصل إلى الحجرة الكئيبه استوقفتها يد قاسية، أمسك بها من شعرها وهو يقول:

- انتهيت إذن، هيا إلى حجرتي لتمسحي أحذيتي.

سارت وراءه خائفة بلا أية كلمة سوى "أمرك سيدي" حينما دخلا، أغلق الباب وراءه ودفعها إلى السرير أبعد سرواها القطني المتسخ، نزع رداءها الداخلي ثم أوج عضوه فيها بسرعة ولم تستطع الصراخ، لأنها خافت أن يضربها وأن يستيقظ كل من في البيت. قام عنها وهو يصيح - هيا اخرجي من هنا.

ذهبت إلى حجره الخدم، ألقت جسدها على الفراش الصغير، لم تذهب إلى الحمام للاغتسال ولم تبصر نقط الدم الحمراء التي صبغت سرواها الداخلي.

صباحاً وهي تنظف الجنيحة، شلتها الآلام الحادة أسفل بطنها، ودفعها السائل الساخن لترك الدلو والمكنسة والذهاب إلى الحمام لإزالته، بقع من الدماء كانت تلوث

ملابسها لم تدر سببها، هل الجرح الذي سببه لها سيدها
البارحة؟

استمرت الدماء لعدة أيام وموحا تفكر أن تحكي
للخادمة الكبيرة لكنها خشيت أن يضربها ابن سيدها، إن
تفوهت بالأمر كانت تسرق أوراق الجرائد التي يرميها سيدها
والمناديل الورقية الموضوعة في الصالون، كي تحشي بها سرواها
الداخلي لمنع تسلل الدماء.

موحا لا تعرف من هو أبوها؟، ومن هي وأمها، كل ما
تذكره عن طفولتها، أنها كانت عند امرأة من نساء القرية،
سمعت أنها أخذتها من خوري الكنيسة لتربيتها مع أولادها،
لكن بعد أن مات زوجها صارت "موحا" عبئاً عليها،
فنصحها الجيران أن تضعها عند إحدى العائلات الثرية في
المدينة كي تتخلص من إعالتها، إذ لم تكن تلك المرأة تملك
النقود لتربي أولادها، فمن أين لها تربية فتاة وجدت على
باب الكنيسة، تذكر "موحا" أنها كانت في السادسة أو
السابعة عندما جاءت أول مرة إلى بيت "سيدها"، وأن تلك
المرأة التي ربتها حتى هذا العمر احتضنتها للمرة الأخيرة وهي
تبكي وتقول: "ما كنت لأتركك"، يومها سحبتها الخادمة

فوزية من يدها إلى داخل غرفة الخدم، وألقت في يد المرأة بعض الورقات المالية.

منذ ذاك اليوم صارت موحا متخصصة لخدمة بنات سيدها، وفي حال غيابهن تنزل إلى المطبخ لتتعلم سائر الأعمال المنزلية.

جميع من في المنزل كان يعامل موحا على أنها حشرة بلا فائدة، ما عدا سيدتها "سلمى" لم تكن لتكبرها إلا بسنتين، لذا كانت تعطف عليها في بداية قدومها إلى المنزل، كانت تحدثها عن مدرستها والأساتذة والمعلمات، ومرة فكرت في تعليمها القراءة واستطاعت موحا أن تميز الأحرف وتكتب اسمها، لكن حينما لاحظت الأخت الكبرى تعلق سلمى بموحا، مُنعت موحا من التخصص في خدمة الفتاتين، وانتقل عملها إلى المطبخ لكنها لا تدري لماذا ابن سيدها دائماً ويصر أن يكيّل لها السباب والشتائم، منذ قدومها في اليوم الأول إلى البيت، تذكر يومها أنها رآته يأخذ النقود من حقيبة أمة، وحين اتهمت الأم الخادمة الصغيرة، صرخت موحا بأنها شاهدت ذلك الشاب يفتح الحقيبة ويأخذ النقود، ولم تكن لتعرف أنه الابن الأكبر.

موحا تدرك أنها تعيش لتخدم كل من في البيت، وكل ما تتمناه أن يمر نهارها من دون أن يضربها أحد، أو تعاقب وتنام في القبو المعتم، لذا تحولت مع الأيام إلى كائن صامت، لا يشكو أبداً ولا يتكلم، إنها لا تتحدث إلا مع "الكنار" الصغير الذي اشترته "سلمى" تحكي له في الصباح عما ينتظرها من عمل، وتطلب منه أن يغرد لسيدتها "سلمى" ويخبرها أن موحا تحبها كثيراً.

عندما كانت في التاسعة من عمرها وقعت عن السلم الخشبي حين كانت تغسل الشباك الزجاجي، وأدى ذلك لحدوث عرج طفيف في ساقها اليسرى، بسبب تأخرها في العلاج، وإهمالها للتمزق الذي طال الأنسجة، ولم ينتبه أحد إلى حالتها إلا بعد ذلك بأيام حين تضخمت القدم وصارت موحا عاجزة عن السير، وبعد تلك الحادثة صار "ابن سيدها" يضيف إلى شتائه السابقة كلمة "العرجاء".

في هذا الصباح الذي داهمتها فيه آلام أسفل البطن، بعد ذاك الجرح الذي سببه لها "ابن سيدها" استدعتها سيدتها "سلمى" كانت موحا توشك على إخبارها عن الدماء التي تسيل من داخلها لكنها صمتت وخافت أن تدخل "سارة"

إلى الغرفة وتلمحهما يتكلمان معاً، فيؤدي ذلك إلى عقابها بالمبيت في القبو. طلبت منها "سلمى" أن تأخذ الكنار وتذهب به إلى صديقتها "اسمهان" التي تسكن في الشارع المقابل، لأنها قررت أن تستبدل الكنار "بطيور الحب" الملونة.

أحست موحا بغصة شديدة حينما أدركت أنها ستفارق الكنار، وكادت تقول: "اتركيه لي". لكن من أين لها الحق بالكلام؟

حملت موحا القفص الذي يسكن فيه الكنار الصغير، وخرجت من الفيلا، لتسير إلى بيت أسمهان، كانت حزينة، دموعها تسيل بغزارة، والطريق الأسفلتي البارد يشعرها بالترحلق وهي تسير عليه.

عبرت من أمامها سيارة مسرعة، دفعتها أرضاً، ورشقت كل ثيابها بالمياه الموحلة، القفص الصغير لم يعد في يدها، حاولت القيام بعد أن تجاوزها السائق بلا اهتمام لكن ساقها لم تطاوعنها على الحركة، أرادت الصراخ، صوتها أيضاً بدا مخنوقاً، نظرت إلى الرصيف، كان قفص الكنار مقلوباً، لكنه بعيداً عنها، لم تستطع أن تميز إن كان الطائر في داخله أم لا.

أحست بيد صغيرة ترفعها عن الأرض، إنه صبي في مثل
سنها تقريباً، ساعدها على الوقوف، وهو يقول مشيراً إلى
أحد الدكاكين تعالى لتنظيف ثيابك، دكان أي هنا، كانت
تنظر إليه يخوف، وتردد، ثم صرخت.

الكنار الكنار..

سارت نحو القفص وسار الصبي معها بسرعة، هتفت
بفرح وهي ترفع القفص الخشي الكنار مازال حياً، مازال
حياً، حينها نظرت إلى وجه الصبي، بدأ لها حلو الملامح،
سألته من أنت؟

قال: - أنا كريم ابن صاحب الدكان، تعالى لتغسلي
يديك عندنا، أبي رجل طيب. رافقته موحا وهي تمسك
القفص بفرح، استقبلها الرجل بابتسامة وهو يطلب منها أن
تدخل إلى الحمام لتغسل يديها وتمسح الوحل عن ثيابها، ثم
علق بأنه شاهد السيارة وهي تتجاوزها بان دفاع وتوقعها على
الأرض.

حينما خرجت من الحمام قال لها الصبي الصغير:

- ما اسمك؟

- موحا

- وماذا يعني موحا؟

سألها وهو يبتسم ويرفع صوته سائلاً أبيه:

- بابا تقول إن اسمها موحا، ماذا يعني "موحا"؟ خجل الأب لعدم معرفته الأجابة فقال، أسأل معلميك.

كانت موحا تمسك القفص وتستعد للابتعاد، وكريم يقول لها: غداً سأسأل المعلمة عن معنى اسمك، عودي مرة أخرى لأخبرك بالإجابة، ابتسمت له وهي تقول: سأعود "إن استطعت ذلك".

سارت وهي تضم القفص إلى صدرها لتتابع نحو بيت أسهان وهي تفكر: ماذا تعني موحا؟

٢٠٠٢/٢١/٣٠

عبرت ذاك الخط المتأرجح بين اليقظة
والسبات، فتحت عيني ببطء ليطالعني ضوء
نهار صاخب والشمس لا تكتفي أبداً من تسلق
البشر.. دخلت إلى الغرفة.

"ماري" .. استيقظي، حبيبتي.. كنت بكامل وعيي..
أفتح عيوني بشدة ومع هذا أُمي لم ترني، بل هزت جسدي
كي أستيقظ.. حاولت أن أقول شيئاً لكن جسدي لم
يطاوعني.. ولا أدري سبباً..

"ماري" - ما بك حبيبتي .. لا يزال صوت أُمي يرتفع،
ويصدح في محاولة لإيقاظي، وأنا أجاهد كي أنبثها بيقظتي -
لكن لا أعرف - أشعر بأني حرة.. ولكني مكبلة.

- "فؤاد" تعال وانظر إلى ماري.

صوت أُمي استحال صراخاً. وجهها الأبيض صار ممتنعاً
بارداً كالثلج. يهرع والدي بشعره المنكوش وبيجامته الرمادية

الشاحبة، دون أن يغسل وجهه.

- ما بك يا جيزيل لماذا تصرخين؟!

أبي يعبر بخطواته نحوي، ويحدث أمني محاولا نشر الهدوء،
أنظر إلى الغرفة والذي يفحص جسدي، لا أعرف لأول مرة
ألاحظ أنني أرى جسدي، صحيح أنا أرى الغرفة وجسدي
والسرير وأمي وأبي.. كما لو كنت أشاهد فيلما.. لكن
كيف.. أنا هنا وأرى جسدي هناك؟ من أنا؟ أين أنا؟

أمي بدأت تنتحب، وجه أبي بدأ يغدو شاحبا، وهو يمد
يدي ليقبس نبضي يضع رأسه على صدري ليصغى إلى دقات
قلبي.. صحيح أنا لا أسمع دقات لقلبي . غريب..

- دكتور.. ينطق أبي بصعوبة.. أحببت أن أطمئنه
علي.. لكنني لم أستطع - هناك شيء يمنعني من إيصال
كلماتي لنطقها.. لكن مع هذا لا أشعر بالانزعاج.. أمني
بدأت بالنواح ولم أفهم لماذا؟ ثم انهالت على جسدي بالقبل
وبدأت تضميني وتصرخ بي أن أعود.. لا أفهم.. كيف أشرح
لها أنني كا زلت هنا؟! صراخ أمني يعلو.. وانفعالاتها تتزايد
وأبي يتحرك بسرعة للخارج مع أنني أحب أمني إلا أنني غير

مهتمة بصراخها.. لأول مرة لا أتعاطف مع دموعها . أوحزنها
أحسست أني هادئة بلا انفعال، لا أعرف كم مر من
الوقت.. عاد أبي ومعه رجل غريب.. وضع سماعة على
صدري، قاس نبضي من يدي.. ثم نظر إلى والدي بأسف:
متأسف العوض بسلامتكم.

العوض بسلامتكم، كدت أضحك، لكنني لم أفعل ..
العوض بسلامتكم تستعمل للحديث عن ميت، ميت من
ميت؟ هنا في هذا البيت ميت؟ لا أرى أي أموات، في هذا
البيت نعيش ثلاثتنا أنا وأمي وأبي، وأنا أرى ثلاثتنا أمامي
أمي وأبي وأنا.. لكن مهلاً.. أرى ثلاثتنا.. ثلاثتنا كيف
أستطيع أن أرى نفسي لا أفهم..

- "فؤاد" البنت ماتت.. يا "فؤاد".

أمي تصرخ وتولول، انهارت على السرير وأبي يبعتها
ويهدئها.. وأنا لا أستطيع التدخل لتهدئتها.. مع أنني أتمنى
لكن لم يمض وقت طويل حتى عمت المكان فوضى عارمة،
غرفتي الهادئة، الوادعة أصبحت مغزوة، كالسوق من
القادمين والذاهبين .. جيران أقارب لا أفهم لم كل هذا الكم

من الناس يتحلقون حول جسدي النائم ويشاركون أمني
بكاءها ويهدئونها.. لا أفهم.. عندما أستيقظ من سباتي
سأنهر أمني وأطرد هؤلاء إنهم يوسخون غرفتي وذاك الصبي
هناك ينزع اللوحة التي على الحائط.. آه وتلك السيدة
الضخمة . جارتنا . داست فوق شريط CD يأتي بالموسيقى..
آه كم جميلة هي معزوفة Deliveranee .

غريب أحاول أن أصرخ بأمني أن تطرد هؤلاء المخربين
من غرفتي.. إنهم يعيشون بها فساداً. أخيراً يشفق أبي عليّ..
ويقرر نقلي إلى غرفة أخرى ولا تزال نفس الوجوه ونفس
الدموع والأصوات تتكرر ومع هذا أنا لا أشعر بشيء..
جارتني "إيلين" تتحدث وهي ترسم شارة الصليب على
صدرها..

يا أبونا.. كيف راحت.. كأنها طير صغير عصفور.. "كم
عمرها؟! أمني "تلعلع" من بعيد..

الآن بدأت أستوعب هذه التي رحلت لربما تكون أنا..
لكن كيف رحلت.. ثم أنا حسبما فهمت - رحلت يعني
مت، كيف أكون ميتة وأنا أفكر.. المعادلة المشهورة تقول:

"أنا أفكر إذن أنا موجود، وابن سينا كما أعرف يقول إن
الإنسان يدرك وجوده قبل أي شيء.. يعني الإنسان الحي..
وأنا أدرك وأفكر وأحلل.. وهؤلاء الأغبياء يقولون مت..
كيف مت؟ وأنا لا أزال هنا . أحاول الصراخ فيهم لا
جدوى، أحاول الاقتراب منهم، لكن أبداً كما لو أني ملتصقة
بمكاني، أرى لكن لا أستطيع التفاعل، ربما ما زلت نائمة..
ربما أحاول الصراخ.. التحرك.. لكن لا جدوى ومع هذا لا
أشعر بالملل.

غريب.. أنا لا أحس بشيء.. لا أحس بأي شيء البتة..
أتراني لا أزال نائمة.. ربما.. ربما.

عشق أباد

إهداء: إلى غالية ضاهر لأن بوابات العشق موحدة

غفت في تلك المدينة البعيدة، ذبلت وهي تبحث عنهم، أين هم؟ رحلوا بعيداً، مضى عليها آلاف السنين هنا، تنتظر. شابت خطاها، ترجوهم البقاء لكنهم يرحلون في كل مرة عنها، بعد أن يلقوا بفتوحاتهم فيها. كم أوهموها بنصرهم، تنخدع، وتعود لتصدق، هي بلاد العشق التي أمها الجميع، وركعوا عند قدميها يطلبون عشقا صافيا كخيالاتها عنهم، يتذوقون رحيق الغيث الأول وتغمرهم نشوة لا يقدرّون على احتمالها، فيرحلون.

"لن أبحث عنهم، لن أجوب طرقات العالم أبحث عن وجه أعرفه ليحتضن نهايتي لن أغسل عيني بشفتهم، كلهم عرفوني، وما عرفتهم أبداً. في المرة الأولى، أتى إلي قائلاً إنه سيسكنني لأنني عشق بلا حدود، بعدها غادر بعيداً أبعد مما أبصر".

لن تصلح هذا العالم الفاسد، ولن تنجح بتمزيق كل حجب الوهم والوصول إلى يقين مطلق، مازالت أسربة خيالنا تم تلوح من بعيد كغلالة من الشفق، عبثاً تحاول الوصول، لكنهم يرحلون.

"قال لي: ليس مني، خذيه، ارميه، اذهبي عني بعيداً وألقيه في بحيرة التماسيح، أمامي كثيرٌ من الغزوات والفتوحات والانتصارات ربما لن أرجع أبداً إلى هذه الأرض، إنها لا تصلح إلا للعشق، والعشق نهايته الموت، ولا أريد أن أموت. حملته وليداً بين ذراعي لفت ذراعه بتميمة عشقي ووضعتة هناك حيث ينام الصغار، ويلعبون، ويأكلون ويحملون أسماءً غير أسمائهم الحقيقية."

تحاول إدراك حكي الأماني لكنها كطفل صغير تعارك أشباح السراب، وولع يبحث عن الأكثر، عبثاً لا تجد فينتهي الكلام، وينذوي الشغف لأنها لم تعرف أبداً حجم البحر ولم تدرك بعد السماء.

"انتظرت كل مواعيد الأرض، والقطارات الآتية من بعيد عساهم يعودون، لكنهم لا يذكرونني أبداً، كم كانوا ينتظرون

على باي ليلاً وعند الفجر يمسخون أعينهم بالهرب مني
ونسيان ما يخشون تذكره.

من خلف الأسوار كنت أرقبه، هائناً كملاك، غافلاً لا
يدرني أبداً خفايا علقم العشق وسواده قالوا: "إن رجلاً ثرياً
تبناه سيأخذه ويرحل بعيداً" من يومها عرفت أنني لن أبصره
ثانية، ولن أسمع ضحكات عينيه وأرى فراشات شعره
الأشقر.

" تنادي في مواسم النيروز، ربما يعودها أحدهم، مازال
قلبها أخضر، وتحلم بأن يسكنه عاشق يندر لها شمعاً كل
مساء ويشعل نجومها فرحاً. لم تيأس لأنها أرض العشق التي لا
تنتهي ولم تكتشف بعد كل مجاهلها.

"وجهه يشبه فرسان الحكايا، بدا آتياً لتوه من أزمنة
الحنين.. أنا متعب خذي إليك أحتاج أن أغفو قليلاً وأنسى
من أين جئت، أنهكتني الحروب والمعارك، أتعبتني منازل
الموت، أريد أن أحيى، أن أقبض على الذهب بين ذراعي،
وأنام على حرير سخي، وأركض في قصوري وجناتي، و أريد
أن أسمع رنين أساورك في أذني ليلاً."

أرادت أن تسأله إن كان صادف في أسفاره صبياً ورجلاً
ثرياً يرحلان معاً من بلد إلى بلد، ويطوفان الدنيا التي لا
تعرفها، لكنها صمتت، لم تقل له إن فيها جنات لم تكتشف
بعد وأن عليه البقاء معها ليرى، نام في ذراعيها متعباً، وعند
الفجر لملم كل عدته وعتاده ورحل.

لم أبصر وجهه بعد تلك الغفوات، أو سمته ونياشينه
المعلقة على أشجار بيتي نزعها قبل مغادرته، هل فطن أنني
سأبوح له بأن هناك ما يدغدغ أحشائي، فأسرع هارباً، أي
نوة عشق تعصف بي فتلقي ببذوري إلى المجهول.

من أين تأتي بكل هذا الأمل؟ وكيف تخبئ إيماناً بالعشق
وتدعي أنها خاوية؟ منذ أول مرة صدقتهم فيها وهي تواصل
ابتهاؤها وتقديم القرابين لأوهام لا تملك لها يقيناً، تنادي، فلا
يسمعون، ولا يعود رجوع الصدى.

"طفلة حمراء الشعر، بلون العشق، أورثتها تيمتها،
وتركتها أمام باب تستطيع أن تتمتع خلفه بالعيد حين يأتي
على الأطفال، صفير الريح ليلتها يعوي ويدمدم، وهي تترنح
ألماً لتتخلص من إرثه.

لماذا أنا موصومة بالعشق؟ لماذا هم يعشقون ويرحلون بلا
أي أثر يدل على عشقهم؟ كما يصعدون الجبال، ينزلون
الوديان يجوبون الصحاري، ويسلكون الثلوج، يعبروني
، يخلعون أمتعتهم، يرتاحون، ينامون، بلا بصمة حزن أو فرح
تؤكد عبورهم.

كم صار عمرها؟ لا تدري.. كم مضى عليها وهي تقوم
بطوافها الدائري عائدة لنقطة الانطلاق؟ لقد نست كل
صلواتها القديمة وقرابينها وابتهاالاتها التي كانت تتقرب بها
لآلهة أوهاهما السرمدية، بحثت كثيراً عنهم، مازالت تذكر
ملاحظهم، لكنهم ما تذكروها أبداً، عادت إلى مدينتها
البعيدة، إلى نقطتها الأولى وغفت.

أحلام تغسل الماء

تنزع ورقة الشوكولا عن الجزء البني المغلف،
تقضمها بشراهة تحت أسنانها، القطعة الأخيرة
تحتفظ بها في فمها وتبدأ بمصها بهدوء، لا شيء
يشعرها بالنشوة لدقائق سوى تناول ألواح
الشوكولا بأنواعها المختلفة. تعاود الجلوس على
سريرها، تلتف تحت الغطاء، العالم ضبابي جداً،
كم تخاف العتمة، يرعبها الظلام والأشباح التي
تتسلل من فمه.

"أدري أنني لا أشكل إلا حجراً في رتابة هذا الكون
وعبثيته، إنه لا يحتاج وجودي، ولا يلفظني خارجاً، كم هو
عدد الذين لا يحتاج الكون وجودهم؟ كثيرون ربما، وأنا بين
آلاف الملايين التي يزيد عبء وجودها على هذا الكون،
حياتي لها غموض الموت ورماديته، لماذا يظنون أن الموت
أسود رغم أنه يأتي متلفحاً بالرمادي، وأحياناً بالبني الغامق
يشبه لونه ألواح الشوكولا، في أدراجي هناك الكثير من
أغلفتها، لا أحب التخلص من أوراق الشوكولا تأملها

يشعري بمتعة خفية.

عندما كنت صغيرة كنت أحتال على صديقاتي أضع الرمل مكان الشوكولا ألصق الأغلفة وأعطيها لهن، كانت تلك مداعبات الطفولة، منذ أيام حاولت أن أعطي لأحلام قطعة من الشوكولا لكنها هزت رأسها ولم تبال بي، كانت مشغولة بغسل الماء، كلما رأت مياه المطر تقطل تسرع إلى البهو الخارجي تبدأ بتعبئة المياه من الحنفية في دلو حديدي ثم تضعه تحت المطر ويبدأ المطر بالسقوط على الماء المعبأ من الحنفية، وأحلام تستمر في عملها تعباً الدلاء وتضعها تحت المطر، لا أحد يسأل أحلام عن أسباب وضعها الماء تحت المطر. الكل يعرف أنها تغسل الماء، لا ينتهي عمل أحلام إلا مع توقف المطر، حينها تحس بغبطة غريبة تغطي مساحات وجهها المثلث الصغير، حواف بنطالها يسيل منها الماء، بلوزتها القطنية رطبة، لكنها ترفض خلعها. تقف أحلام وتبدأ بحمل الدلاء المقدسة إلى الداخل، لا أعرف ماذا تفعل أحلام بالماء بعد ذلك، تستحم به، تشربه؟ "ربما تخبئه للصيف حين يغيب المطر".

لا يصدقها أحد، تقسم لهم أن الأشباح تخرج ما أن يفتح

الظلام فمه، وأنها تسحبها معها، وتلقيها أرضاً وتبدأ بجلدها، لكنهم لا يصدقون، تكره جسدها، تراه دميماً، صار أسود من آثار السياط التي تسقطها الأشباح عليه، تتكور على نفسها بشكل جنيني، تخبئ رأسها، عيناها مغمضتان، لن تفتحهما لأنهم سيأخذونها معهم، ما حاجتها إلى فتح عينيها، تحفظ جيداً كل محتويات الغرفة، بجانب السرير طاولة صغيرة عليها أوراق بيضاء، وأقلام حبر كثيرة، كرسي بلاستيك برتقالي قبيح. يرقد قرب دولاب الملابس البني ذي الدرفتين، هناك قطعة موكيت صغيرة من اللونين البرتقالي والبني، كم تكره البرتقالي، لأنهم يتخذونه وسيلة لإشعال ألسنة اللهب في غرفتها. كلما كانت غافية بهدوء، ونسيت العتمة وتقلبت يميناً ويساراً، لو فتحت عينيها وأبصرت الكرسي البرتقالي ستجد النيران تشتعل به، وتتوهج كلما نظرت أكثر، وتقترب النار منها، تزحف نحو كل ما في الغرفة، تلتهم دولاب الملابس، السجادة والطاولة الصغيرة، وتزحف نحوها، برتقالية جداً، ينهمر من مسامتها سائل أسود يروي النيران فتشتعل أكثر، "تصرخ لا أحد يستمع إليها".

حاولت أن أقول لهم أن أحلام ستمرض وتموت من البرد

لو أنها استمرت في حمل دلاء الماء، وربما تصاب بداء صدري
يودي بحياتها.. يرعيني رحيل أحلام، من سيغسل الماء لو
ماتت؟

ضربات قوية على الباب، يد كبيرة تسحبها خارج رقعة
النار، تمسكها من شعرها، تهزها بعنف، تحس أن شعرها قاس
جداً وجاف على رقبتها، يشبه أسلاك تنظيف الصحون في
قسوته، كم مضى عليها منذ استحمت آخر مرة، لا أتذكر،
اليد الكبيرة التي حركت خصلات الشعر، تدفع إلى فمها
ثلاثة حبوب من الدواء، واحدة بنية، واثنان من اللون
البرتقالي، ضوء النهار يغمر الغرفة، لون مصباح النور برتقالي
يشبه لون جلسات الكهرباء أيضاً.

لون مر

مصاب هو بالحنين الجارف إلى لون غائب
يبحث عنه يتنفس عميقاً كلما تهيأ له.

تفتت بصيرته من ألوان الطيف الحقيقية للروح فتبزغ من
داخله تصورات، وحده يدرك عمق التصاقها بكيانه.. هكذا
هو من الممكن أن يجب عبر الهالة اللونية التي لا تخطئ أبداً،
لأنها بريئة ونقية، منزهة عن التركيبات المعقدة.

ربما يبدو ما أعاني منه حفنة من الأوهام الخاصة بي،
تشبه في طولها واتساعها كتلاً من المدن العائمة، لكنني متأكد
أنني لا أبصر من الأشخاص إلا ما يحيط بهم من لون لا
يتشابه مطلقاً بين شخص وآخر، إنها إشعاعات لونية
متفاوتة، مشعة أحياناً عند البعض، ومتدرجة بين بريق
الحليب الأبيض ولمعان لون الكراميل وسخاء تدرجاته، من
البيج إلى الذهبي المتماوج بالعسلي. وجوه أخرى أبصرها
قائمة، تتساعد قناتها من لون الغبار إلى بقع البترول اللزجة
التي تحاصر أرواحهم فأراهم يتحركون كأشباح كل همها

تحسس جيوبها المنتفخة. ليست الحكاية عندي قدرة على الاستبصار اللوني بقدر ما هي لذة اكتشاف الهالات ومراقبتها عن بعد وقرب، بعضها يبدو مستساغاً في البداية بنكهة لونية غامضة تثير لديك إحساساً بالشغف العارم، لكن فيما بعد تكتشف أن هذا ليس إلا ظلال واهية، وأن الهالة المتخيلة التي أبصرتها لم تكن إلا سراياً ربما كان هذا التمرس على استكشاف الهالات ومعرفتها لم يكن إلا احتياجاً مني للعثور علي ما يتواءم مع هالتي التي لم أرها، ولم أعرف لوئها".

يحاول جاهداً عبر لعبة الألوان أن لا يسمح لأي جرح أن يطال أعماقه لن يتيح للتكنولوجيا ولا للثورة المعلوماتية أن تشوش على بوصلته اللونية وتفقدته الاتجاه.

"لن أستطيع البوح، ولن يصدق أحد حقيقة إدراكي اللوني الذي ينبعث من أعماقي، قد يبدو بعضهم قبيحاً للغير، لكني لا أبصره كذلك، لأن هالته اللونية تبرق بشعاعات من فجر الطفولة، وفرح الشباب.. أنا لا أكثرث بالحجم أو الشكل، لا أبالي بتضاريس الجسد، وتقاطيع الوجه، لا تعينني هذه التفاصيل التي يمكن أن يعالجها بخفة

جراح تجميل ماهر.. يأسرني فقط الشعاع المنبعث من الكتلة المتحركة، أحب، أكره، أصادق أنفر وأبتعد فقط من نظرتي إلى الهالة اللونية التي لا تفصلني عن الحقيقة بل إنها دليلي للمعرفة ووسيلتي للاكتشاف".

أبصرها من بعيد يشع منها اللون الغائب، هي كما رآها عن بعد مزيجاً من تسلسل ألوان الغسق والشفق، الفجر والسحر، أية زلزلة لونية أحدثتها داخله تلك الفتاة العجورية، الطفلة المفعمة بكل هالات الأمل.

"أخيراً صمت التردد، سكت القلق، وتلاشت كل الألوان المعتمة. لقد وجدتها إنها لوني الغائب الذي أبحث عنه، هي الزهرية البيضاء، الفضية الوردية، الذهبية، الشاحبة المشرقة، السماوية، الهائمة بصفاء شارد خلف إشعاعاتها المركبة من روح قوس قزح وامتزاجه بالشعاعات الفضية المنسابة على الراقصة تحت ضوء القمر.. وحدها اخترقت مساحتي واتساع مدني لتواصل إطلاق ألوانها الخرافية داخلي.

معا يفصلهما مربع خشبي بلون التراب، حين حدق في

عينيها هبطت روحه إلى متاهة الألوان وغاصت بوصلته في
رمال الحيرة وعصفت به الرياح اللونية.

أريدك قلتها، وأنا أشرح تأثير هالتها عليّ للمرة الأولى
تكلمت عن الألوان وعن بصيرتي اللونية وإيماني بالهالات
كانت تستمع إليّ بصمت وهدوء، مسرلة بألوانها الأسطورية
غير المكتشفة بعد. غمرتني سعادة وردية، وردية تماماً، وأنا
أتأمل عقبها المبهر الذي غمر كياني، لكن رويداً رويداً بدأت
سحابة صفراء تغمرها تغطي عليها، وعيناها تطوفان بي،
تحققان في هالتي، برودة قائمة السواد، وصمت جليدي بدأ
زحفه البطيء نحوي قبل أن تطلق عبارتها الأخيرة قائلة: "إن
لونك مر لا يتناسب مع لوني".

أنهيمالا

قررت آمنة - وهذا ليس اسمها الحقيقي - الذهاب يوم الأحد إلى المسبح. أقنعتها صديقتها فرحها، بأن المسبح يوم الأحد يكون فرصة لأشياء كثيرة، لعل أهمها من وجهة نظر فرحها مواعدة شباب مناسبين للرفقة والتنزه طوال اليوم. أما آمنة فقد بهرها حديث فرحها عن المسبح، وعذوبة الماء، ورقص الفتيات قرب حوض السباحة، والوقت الضائع في الاسترخاء المفقود.

العائلة التي تعمل عندها آمنة اختارت لها هذا الاسم بدلاً من اسمها الحقيقي «أنهيمالا»، فقد غير سيد البيت اسمها لأنه صعب ولن يتمكن هو والأطفال من نطقه بسهولة، كما طلب منها أن تضع غطاء الرأس على شعرها، لكنه لم يمنعها من الذهاب في يوم الأحد إلى الكنيسة، لأداء شعائرها. وكما لو أن عبارة «للمرء حظ من اسمه» انطبقت تمامًا على آمنة، إذ بعد حصولها على الاسم الجديد صار

لديها نوع من الإيمان المتدفق، بحيث لا يمكنها أن تفوت يوم أحد من دون الذهاب للكنيسة والاستماع للقداس، والصلاة أمام تمثال السيدة العذراء، والتضرع لها. وبعد الانتهاء من الصلاة، كانت تتسكع طويلاً في الشوارع، وأحياناً تتعرف بخادمت أخريات في الكنيسة أو الشارع، فيتراقبن معاً إلى شاطئ البحر، ليتنزهن هناك، حتى موعد عودتهن في الساعة الرابعة، بما أن الأحد هو اليوم الوحيد الذي يسمح فيه لهن بالخروج من البيت.

لكن آمنة في معظم الأحوال لم تكن تغيب لوقت طويل يوم الأحد، فقد كانت تغادر رفيقاتها بعد ساعة، أو ساعة ونصف الساعة على الأكثر، لأنهن يبدأن بالتغامز والاتفاق على مشاريع بدت غامضة بالنسبة إليها في أول الأمر، لكنها عرفت فيما بعد أن حياتهن في هذا البلد الغريب، تسير بجهد مضنٍ يجعلهن ينتظرن يوم الأحد بفارغ الصبر، كي ينفسن عن رغباتهن المكبوتة.

تركت آمنة في بلدها البعيد، زوجياً، وطفلاً صغيراً، ربما لهذا السبب لم تكن مقتنعة بمشاركة رفيقاتها باللهو، لذا كانت مخلصاً في عملها، وفي صلاحها أيضاً، هذه هي المرة الأولى

التي تغادر فيها بلدها نحو بلد غريب، هي لم تعمل سوى في حقول الشاي، وجاءت إلى هنا بناء على عقد عمل مدته عامان، لا بد أن ينتهي في وقت ما، وستعود حينها إلى بلدها وأسرته، ومعها مبلغ جيد من المال. وحتى ذلك الحين، هي مستمتعة بالطعام اللذيذ الذي تحصل عليه، وبالمبيت على سرير نظيف، وبإجازة يوم الأحد. كان ما يزعجها فقط نوبات السعال التي تسبب لها الحرج أمام أفراد الأسرة.

سيدتها، كانت امرأة ذكية، فقد سمحت لصديقتها فرحهاو التي تسكن في المبنى المقابل بزيارتها مرة أو مرتين في الأسبوع، كي لا تلتقيها آمنة بعيداً عن أعين العائلة، حيث تحدث أمور بين الخادمتين لا أحد يعرف أين تنتهي. تعرفت آمنة إلى فرحهاو عبر البلكون، في البداية ظلتا تتبادلان الإشارات لأيام، ثم التقتا في الشارع حين كانت آمنة تشتري أغراض البيت، وحين عرفت سيدتها أن فرحهاو تعمل عند عائلة مجاورة ومعروفة، أي أنه لا يوجد خطر من لقاء الخادمتين. سمحت لآمنة بالتزاور مع فرحهاو، وبالترافق في الذهاب معها إلى الكنيسة يوم الأحد، على الرغم من أن زيارة الكنيسة لم تكن ضمن مشاريع فرحهاو المفضلة ليوم الأحد.

خلال الزيارات، كانت الخادمتان تجلسان في المطبخ، وتقوم آمنة بعملها خلال وجود فرحها، إلا أنهما كانتا تتخاطبان بلغتهما التي لا يمكن أن تفهما السيدة بأي حال من الأحوال، وغالبًا ما كانتا تشكيان لبعضهما سوء تصرفات السيدات، وغرورهن، ولؤمهن، وشهرن المتأصل في معاملة الخادمت، بالإضافة إلى الشكوى من الأطفال وتربيتهم الفاسدة، كما لا يخلو الكلام من الشوق والحنين إلى البلد البعيد، والأهل والزوج الصبور الذي ينتظر عودة زوجته.

كانت آمنة سمراء، بلون الشوكولا البنية، نحيفة جدًا، وقصيرة، لا يوجد أي جزء بارز في جسدها، شعرها قصير، ملامحها أقرب إلى الغلام، لذا لا يمكن إعطاء سن محددة لها، من الممكن أن تكون بين الثامنة عشرة والثلاثين. أما سنّها حسب الأوراق الرسمية، فقد كانت ٢٣ عامًا، وحسب أقوال أمها ٢٤، لكنها لا تهتم كثيرًا بهذا التفصيل المبهم، لعل أكثر ما يعينها الآن، البقاء في هذا العمل، لأنها رغم كل ما تعانيه في عملها هنا يظل أكثر رحمة من ساعات عملها الطويلة تحت أشعة الشمس في حقول الشاي.

فرحها لو كانت أكثر جمالاً منها، رغم أن لوها بني أيضاً، لكنه أكثر لمعاناً، كما أنها تتمتع بقامة فارعة نسبياً، مقارنة بآمنة، لديها مؤخرة بارزة وخصر نحيف، وساقان متناسقتان. وكان في عيني فرحها لو بريق وجرأة واضحة لا تخفى على أحد. في المقابل، كانت عينا آمنة مثل نور خفيف شاحب لفأر أسمر مذعور.

كان الذهاب للمسبح يوم الأحد في أيام الصيف، المتعة المفضلة عند فرحها لو، متعة لا يمكن الحصول عليها إلا مرة أو مرتين في الشهر لعدم قدرتها على دفع رسم الدخول للمسبح، وما يتلو ذلك من مصروفات إضافية ثمنياً للطعام والعصير، حيث الثمن مضاعف في المسبح.

انعكس انتظار يوم الأحد على آمنة أيضاً، نتيجة تشجيع فرحها لو لمرافقتها للمسبح. أوضحت لها أنها تحتاج إلى شراء ما يوه، كما تحتاج إلى نفقات الدخول للمسبح، أي أن الأمر كله سيصل إلى مبلغ خمسين دولاراً تقريباً، ما يعادل ثلث راتب آمنة. لكنها بعد تردد دام أسبوعين، وافقت على الذهاب، وأعطت فرحها لو المال لتشتري لها المايوه. كانت تحس بالغضب لأنها علمت من أمها أن زوجها روبير يسهر

كل ليلة في البار، ويرافق الفتيات إلى بيته، وأنه لا يسأل عن ابنيهما، وينفق المال الذي ترسله له على متعه الشخصية.

أمام المرأة، في الحمام، كانت آمنة ترتدي المايوه الذي أحضرته لها فرحها لو يوم السبت، كانت تستعرض جسدها في المايوه المكون من قطعة واحدة، من اللونين الأخضر والأصفر، مفتوحة عند الظهر، لأول مرة أحست بأن جسدها النحيل ولونها الأسمر لا يسببان لها إحساسًا بالدونية، غمرها إحساس بالامتلاء، وبأنها جميلة، بل جميلة جدًا، وبأنها يجب أن تذهب للمسبح كلما تمكنت من ذلك، مثل فرحها لو تمامًا.

كانت السيدة هي التي لاحظت وجود بقع دم على منديل آمنة، راقبتها أكثر من مرة وهي تسعل بشدة، ثم تأكدت بما لا يدع مجالاً للشك أن هناك بقع دم تندفع من صدر خادمتها كلما سعلت. أخذت السيدة قرارها بإعادة آمنة لمكتب تشغيل الخاديات، لكنها كانت بحاجة إلى سبب قوي يمكنها من إعادة الخادمة ومحاوله استعادة المال الذي دفعته لإحضارها من بلدها.

في الصباح الباكر من يوم الأحد، طلبت السيدة من آمنة أن ترتدي ثيابها لترافقها إلى المستشفى، حاولت السيدة أن تشرح لها ضرورة الذهاب إلى المستشفى لإجراء التحاليل اللازمة، لكن آمنة هزت رأسها بالرفض، موضحة أن اليوم هو إجازتها الأسبوعية، ولا يحق للسيدة أن تفرض عليها شيئاً، كانتا تتفاهمان بمزيج من اللغات والإشارات، بحيث لا توجد جملة كاملة من الممكن أن تفهما إحداها من الأخرى. فقد اكتشفت السيدة أن آمنة لم تعترض من قبل على أي نوع من الأوامر أو التعليمات، لذا لم تكن تدخل معها في جدل، أما الآن وهي تحاول إقناعها بخطورة الموقف، فقد ارتفع صوت آمنة عن مستواه المعتاد لأول مرة منذ دخولها إلى هذا البيت. كانت آمنة تتحدث بصوت مرتفع، وبعبارات متتالية، بلهجتها المحلية طبعاً، التي لم تكن السيدة تفهم كلمة منها، لذا لم تفهم أبداً حكاية المايوه والمسبح، وما اتفق عليه بشأن يوم الأحد، لم تفهم أي شيء إلا بعد أن اندفعت آمنة وعرضت في وجه سيدتها المايوه بلونيه الأخضر والأصفر، ثم خرجت مندفعة خارج البيت وبيدها المايوه.

ربما فهمت حينها أن آمنة كانت تقول لها: «ماذا أفعل

بالمايوه.. ماذا أفعل بالمايوه».

أما السيدة فقد ظلت تنظر بذهول إلى باب الشقة
المفتوح، وإلى منديل أبيض عليه بقع حمراء من الدم، ألقته
آمنة على الأرض قبل أن تغادر.

السابعة إله ربح مساءً

رن جرس الباب مرتين وبعد ثوان رن مرة ثالثة
إنها: أمينة، حبست أنفاسي وقررت ألا أفتح
توقفت عن الحركة وخفضت صوت التليفزيون
لأؤكد من ابتعادها، لكنها تعلم يقينا أنني هنا
ولن تياس. لكن لن أفتح لها الباب، ولن أتركها
تحدثني عن العصابة التي تسكن في الشقة المجاورة
لشقتي، ولا عن صيدلية الدكتورة سهام التي تبيع
حقن المخدر للشباب ولا عن المرأة المستشفرة
التي تغادر منزلها هي وابنتها في العاشرة مساءً
وتعود وجه الفجر.

لن أنصت لحكايا أمينة بعد اليوم، ولن أسمح لها بسحبي
إلى عالمها. سرت نحو النافذة، رفعت الستارة قليلاً، الشمس
تسدل آخر نعمها على رأس الهرم الأكبر. ها هو "خوفو"
ينظر إليّ كما يقول زوجي، كلما فتحت النافذة ليلاً ورقصت
في الصالة، يهمس لي: إن خوفو يتفرج عليّ الآن وربما يظني
راقصة في معبد تقدم قربانا للآلهة. سقط الرنين ثانية على

سفري الزمني، أعادني إلى هالة الحقيقة من جديد، إنها هي، نقلت بصري إلى الساعة المجاورة، إنها السادسة والنصف، باقي نصف ساعة على عودة زوجي.

أخمن ما سيحدث الآن ستلمحه قادمًا وستعرف أنني هنا، وقد تغضب مني، إذن سأفتح لها الباب وأدعها تجلس قليلا ريثما يأتي، وما إن تراه حتى تنسحب بسرعة كما لو أنها تنظر إلى الرجال على أنهم كائنات فضائية ستقول لي بعد جلوسها بثوان قليلة:- أنت فين خبطت عليك ثلاث مرات؟ أعرف أنها تكذب، وأتلعثم في ابتداع كذبة سريعة. ستجلس على الكرسي المنفرد فينفرش جسدها، أذهب أنا إلى المطبخ أحضر كوبا من العصير، وصحناً من الفستق أضع الصينية أمامها أبلغها أنني سأعد القهوة، يرتفع صوتها مناديا عليّ، ثم قائلاً: عرفتي حصل إيه؟

تطلق سؤالها ولا تنتظر مني تعليقا، بل تتابع وهي تضع يدها على صدرها، تفتح عينيها باتساع، يرتفع حاجباها، وتتحرك أهدابها بسرعة، في محاولة لتنبهني إلى أهمية ما ستقول: "الست زعيمة العصابة اللي جنبك، امبارح لما صحيت الساعة ستة نازلة للمدرسة، شفتها هي وراجل كبير

وضخم ومعاهم بنت صغيرة عندها ست عشرة سنة دخلوها الشقة وما عرفتش حصل إيه، البنت كانت بتصوت وأنا ما عرفتش أعمل إيه، كنت هخبط عليك يمكن الأستاذ جوزك يتصل بجد، هو صحفي وعارف ناس كبار لكن قلت أنتِ هتكوبي نائمة". أنظر إلى أمينة بدهشة وأقول لها: غريب لم أسمع شيئاً، وتعود هي لتؤكد لي إن كل ذلك يحدث في ساعات الفجر الأولى حين أكون نائمة. يذهب ذهني إلى الفتاة الصغيرة التي خطفتها العصابة فأسألها عنها فتقول لي: "وما عرفتيش إن امبارح الدكتورة سهام جت مداهمة على صيدليتها بس مالفوش حاجة، مع إني قبل نص ساعة كنت واقفة في البلكون ولحت شاب صغير دخل عندها علشان تديله حقنة ماكس".

يا إلهي؟ أهمس في سري، وتتابع هي:

"أيوه أنت ما تعرفيش بيحصل إيه هنا، اوعي تفتحي لحد لما تكوبي لوحك تفتحي الباب لي أنا بس زي ما اتفقنا، أرن ثلاث رنات رنتين وبعدين رنة".

أهز رأسي ايجاباً، فيما هي تشرب الجرعة الأخيرة من

كوب العصير.. سيدور مفتاح في الباب، ويدخل زوجي تشد
عباءتها ثم إشارتها وتقول "استأذن أنا دلوقت".

تمر من جانبه وعيناها على الأرض بالكاد تلقي التحية،
وما أن تغادر حتى أعيد سرد ما قالت له لي عن الحي والشارع
والعصابة والبنيت المخطوفة، والشاب المدمن، والمرأة التي
تدفع ابنتها إلى الشارع، يبتسم هو ويقول لي إن جارتني خيالها
واسع أو إنها تستمتع برؤية الدهشة تلعو ملامحي، أحس
بأسئلة كثيرة تخلفها أمينة وراءها قبل أن تذهب وتتركني معلقة
فلا أحصل على إجابات.

أول مرة رأيته كانت قبل ستة أشهر حين قرعت على
بابي لأجد أمامي امرأة قصيرة ممتلئة، وجهها مستدير دقيق
الملامح، تلف جسدها بعباءة سوداء وتشد إشارتها على
رأسها وتلقيه إلى الورا.

عرفتني بنفسها بأنها تسكن في الشقة المقابلة لشقتي،
وسألته أن أعطيها قليلا من الملح لأنها تعد طعاما لزوجها،
بعد ذلك صارت تصافحني كلما التقينا على السلم، تلح
عليّ بالدخول لزيارتها أعتذر وأدعوها لزيارتي، لأفاجأ بأنها

تعرف عني كثيراً من الأشياء. قالت لي في زيارتها الثانية: "أنا عايزاك تسامحيني في موضوع بس احلفي إنك مش حتزعلي": وقبل أن أجيب تتابع "أنا كنت فاكرة الأول إنك أنت والأستاذ عايشين مع بعض كده، بس لما لقيتك كل يوم معاه، عرفت إنك مراته، احنا دلوقت بقينا اخوات ماتزعليش مني".

لا أعلق وتتعطف هي بالكلام عن البلد وعن أبيها العمدة، وعمها الذي قتل ١٣ رجلاً في ليلة واحدة وكيف تركت البلد هرباً من بطشه لأنه كان يريد لها عروساً لابنه. أصمت وأنا أراها تلملم الجرائد القديمة الموضوعة أمامي وتقول لي إنها تحتاجها لتفرش عليها الطعام، أحاول أن أشرح لها أنني أحتاج هذه الجرائد لأرشيقي الخاص، لكنها تغضب وتقول لي: "إنت بتعزي عني شوية جرايد قديمة". أتركها لها لأجدها في اليوم الثاني تسألني عن الحادثة المذكورة في الجريدة التي أخذتها مني، وللتأكيد تسرع في سرد الحادثة، أهز رأسي نفيًا بأني لا أعرف وأصرح لها بأني لا أقرأ صفحات الحوادث أبداً فتقلب شفتها السفلى باستغراب يشبه الانزعاج.

منذ شهرين أتت إليّ لتقول لي بصوت خافت إن العصابة

التي تسكن بجواري ستترك الشقة وقبل أن أسأل كيف عرفت بالخبر، أردفت كلامها بعبارة أخرى تشكو فيها من صاحب الشقة كيف أنه طالب بمضاعفة الإيجار أو الرحيل، ثم تنعطف للحديث عن غلاء الأسعار وسعر تصريف الدولار في السوق السوداء.

لا أتابع كلامها أنشغل عنها بتقليب المحطات الفضائية وحين توقفت مرة عند أحد البرامج الحوارية التي تقدم مناظرة بين أحد الإسلاميين وبين مفكر يساري ارتفع صوته قائلاً "حقا الدين أفيون الشعوب" خبطت أمانة على صدرها وأعادتي إلى عالمها وهي تقول: "أفيون.. أفيون ثاني".

أكاد أضحك لكني أحس بالغيظ من وجودها وحكاياها التي تفرضها عليّ، فلا أستطيع تصديقها أو تكذيب كل ما تقول. وحتى بعد رحيلها إلى مبنى مجاور ظلت تزورني مرة أو مرتين في الأسبوع وتستمر في سرد تفاصيل كثيرة عن عصابات أخرى لا أعرفها، وتصف لي أن شرفة شقتها الجديدة تواجه عمارتنا لذا فإنها تبصر سيارتي حين أكون في المنزل، إذن لا بد أنها هي الآن، لكن لن أفتح الباب حتى لو قرعته مراراً. إنها السابعة إلا ربع تماماً، ربع ساعة ويصل

زوجي. عدت لأقف قرب النافذة، أتأمل لون "خوفو" التراي عبر طرف الستارة الجانبي.

تعلو ضجة في الشارع، صوت إطلاق نار يستدعي انتباهي، أرفع الستارة أحرك دفة الشباك قليلا، سيارة بوليس تقف في الشارع، رجال ونساء وضجيج هائل، ومن بين تلك الوجوه والأصوات أميز عباءتها السوداء الواسعة، وإشارتها المشدود يسقط أرضا وهي تصرخ في محاولة لإبعاد رجل الشرطة عنها، فيما هو يحاول إدخالها إلى السيارة أحسست بقشعريرة، ما علاقتها بالأمر؟ ومن كان يرن جرس الباب إذن؟ مفتاح يدور في الباب، ووجه زوجي يبحث عن وجهي في العتمة ينادي عليّ، أسأله مباشرة ماذا جرى؟ ماذا هناك؟ ولماذا يقبضون على أمينة؟ أطلب منه الإجابة يهز برأسه نفيًا بأنه لا يعرف وبأنه لم يشاهد أي سيارة بوليس أسفل العمارة.

أحكي له أن أمينة رنت الجرس رناتها المعتادة ولم أفتح لها. ثم أحكي له ما شاهدت، أسأله عما يجب علينا فعله لمساعدة أمينة، لكنه يؤكد لي أن الشارع هادئ تماما وأن لا دورية بوليس ولا عسكري ولا أحد يقف هناك أحكي له من

جديد كل الحكاية، فلا يجيبني بقوله: "ربما.. ربما". أحس
بعجز حقيقي يدفعني للنزول إلى الشارع بحثا عن حقيقة ما
يجري.

خمسة وجوه لعالم حياة

(١)

حين استيقظت من نومها كانت تحلم بشارع
طويل، معلق بين جبلين، تظلمه أشجار حور
وكستناء، كانت تمشي وتمشي، والطريق يمتد..

في اليقظة أدركت كم هي بحاجة إلى الماضي بعيدا.

(٢)

يوم أمت الخمسين، أدركت حياة أنها عاشت سنواتها
الماضية مع أحلام مؤجلة، موعودة، ترتق بها أيامها، أن ثمة
غداً آتٍ لا محالة، وعليها انتظاره. لكن قبل بلوغها الخمسين
بأعوام تضاءلت هذه الفكرة داخلها، وحل مكانها هبوب
قسري لأفكار أخرى، جعلتها تنتقل إلى مكان تثقل فيه
الجاذبية بشكل مخيف، فتشد قدميها إلى الأرض، وتجعلها
عاجزة عن الحركة.

في يوم ميلادها، فكرت بثقل العيش، وأنها مجبرة على الاستمرار في الحياة «حياة مضطرة للحياة»، غمرت وجهها ابتسامة ساخرة وهي تردد اسمها.. حياة.. حياة.. اسم بلا مدلول. اليوم حين يأتي أصدقاؤها عند المساء لن تتمكن من القول لهم إنها تحس بوطئة العيش، وثقله على روحها، صديقها الوحيد سيواصل تقديم النصائح لها بالقيام بتدابير بسيطة للحصول على السعادة، صديقتها ستهمسان لها بأن ما يحصل بسبب «سن اليأس»، ومن قبل كانتا تقولان إن كآبتها تحدث بسبب قرب موعد دورتها الشهرية، واكتمال القمر.

في الأعوام الماضية اعتادت أن ترسل نداءات لإنقاذها، تسميها «SOS».

تقول لمن يجيها، إنها وصلت للقاع، وتحتاج إلى من يسحبها إلى أعلى، لكنها فقدت القدرة على إطلاق النداءات. وحين كانوا يسألون عنها، ترد مع ابتسامة: «إن كل شيء على ما يرام». لكن اليوم ها هم قادمون بعد ساعات للاحتفال بيوم ميلادها.

في غرفتها كانت محاطة، بكتب كثيرة، أسطوانات موسيقية، وأفلام، تحرق حياة في السقف، وفي لون الجدران الزهري الفاتح، اختارته بهذه الدرجة ليعث عندها الرغبة بالتفائل، لكن وظيفته الأساسية صارت استقبال وجهها الشاخص نحوه، وعينيها المعلقين في وسطه. نقلت بصرها نحو عناوين الكتب، كانت على نسق «دليلك إلى السعادة»، و«كل الأحلام ممكنة» و«قوة المخيلة»، وعناوين أخرى مؤثرة لأشخاص يشبهونها وصلوا إلى القاع، وعادوا منه، لكن هي لم تعد راغبة بالعودة. كانت تحس أنها تشبه أطفال الشوارع الذين ألفوا الشارع، وصار من الصعب عليهم العيش في بيت، وسط عائلة. هي ألفت قاع الألم، إن كانت موجودة في القاع أصلاً.

في البداية ظنت أن هذا سيمر، وأنها لن تلبث أن تنهض على قدميها، لكنها حين حاولت أحست بعجز شديد، كما لو أن قدميها مشلولتان.

(٣)

في أدراجها أوراق كثيرة، نتف حكايات لم تكتمل لأنها ظلت رهينة غدٍ لم يأت. كانت تواصل الكتابة من دون فعل

اكتمال لما تكتبه، وهذا ما عذبها أكثر، وجود أشياء معلقة تحتاج إلى نهوض هي عاجزة عنه.

في دفترها الصغير الأخضر المزين برسومات لأوراق شجرة توت، دونت أفكارها. فتحت الصفحة الأولى قرأت عنوان نص شرعت في كتابته قبل أشهر «هي والشمس، أنا والقمر». سمعت في المطبخ حركة تعرفها جيداً، ويمكنها أن تخمن ماذا ستكون الحركة التالية، زوجها يصنع لنفسه الشاي، أحست بأنها جائعة بشدة، لكنها لم تجرؤ على طلب المساعدة منه. في تلك اللحظة أيقنت أنها غير قادرة على الاهتمام بنفسها، هي جائعة وليس لديها رغبة بمضغ الطعام، هناك صعوبة بالغة في قطع الخبز ومضغه. العالم لا يحتاج إلى أمثالها، لأنهم يزيدون عجزه، وهي شديدة الهشاشة مثل رماد سيجارة في يد مصارع عجوز. تحتاج الآن إلى يد قوية تمسكها من جناحيها، وتضعها تحت رذاذ الماء البارد لإيقاظها، ثم تجفف لها جسدها، تلبسها ثيابها، قبل أن تقدم لها وجبة دافئة.

(٤)

ما السعادة؟ هل من المهم أن تعثر على الإجابة الآن؟

وضعت الدفتر الأخضر جانبًا، فكرت أن هذا كله غير متاح، وعليها أن تنهض، ينبغي أن تنهض سريعًا، وأن تواصل العيش المطلوب منها، الدور الذي ينتظره الجميع. في المطبخ أكلت تفاحة، قضمتها بصعوبة، ثم اتصلت عبر الهاتف لتطلب قالبًا للحلوى يكفي خمسة أشخاص.

أمام مرآة الحمام، نظرت إلى جسدها، تهدل صدرها قليلاً، لكنها نحفت كثيراً، خسرت وزناً خلال الأشهر الماضية، قالت للجميع إنها تتبع نظامًا غذائيًا صارمًا، كذبت في هذا أيضًا. تحت رذاذ الماء الدافئ أحست بأنها عالقة في الوسط، وأن ثمة يدًا تدفعها دفعًا للأمام، لكن جاذبية الأرض تشدها للقاع.

(٥)

لبست ثوبًا حريريًا زاهيًا، من اللون الفيروزي، جلست على مقعدها الصغير أمام المرأة ووضعت طبقة من الكريم، وبدأت ترسم خطوطًا على وجهها، طبقات لامعة على

الوجه، خطوطاً على العينين والشفيتين والجفنين. صورة المرأة المشرقة الموجودة في المرآة ليس لها علاقة بالمرآة الأخرى القابعة هناك في القاع.

أسندت مرفقيها إلى الحافة، نظرت إلى الساعة، سيصلون بعد ساعة ونصف، كانت تتمتم بصوت خافت: «كل شيء على ما يرام».

صورة مشروخة

"الذكريات التي يختزنها المرء تصنعه".

تذكرت هذه العبارة وأنا أتأمل الصورة، كم
تعيننا الصور على صفحات الجرائد حين نعرف
من يسكنها، وخصوصًا إذا رحل عن عالمنا،
لكن نظري عاد يسرح لبعيد، من هذا الطابق
المرتفع.

أنظر إلى لامكان، لا شيء يشد بصري أبدًا، لا زرقة
السماء، لا بعض الغيوم الشاردة، كنت أطالع السماء
وأتابع اللاشيء، كيف حدث كل ذلك؟ وكيف كنت
سأساعدها دون أن أخسر سمعتي وأصدقائي وكل من حولي؟
رحلت فجأة، وعادت فجأة، اتصلت بي هاتفية بخوف:

فاطمة، ليس لدي أنت، إن لم تساعدني أنت، فلن
يساعدني أحد. إن الأمر مجرد فخ، ثقي بي، ثقي بأيماننا معًا.
بدت من صوتها المرتعش كغريق ينظر إلى كخشبة خلاص، لم
أستطع إلا إجابتها بتعاطف "لن أتركك".

كانت سحر من أكثر الفتيات تميزًا وسحرًا لم تكن
الأجمل بل الأكثر دهشة وإثارة، كانت شقراء، زيتية العينين،
نخيلة، شعرها تقصه بشكل "كاريه"، كل الأشياء حولها تمر
عبر قلبها ثم عقلها، حتى أحكامها الشخصية على الناس
والاجتماع، فلا يهمها أن تتورط من أجل التعاطف مع قضية
أو فكره أو شخص ترى أنه على صواب، أحيانًا كنت أحس
بداخلها نواة لشيء اسمه "التطرف".

تعرفت إليها في العام الأول من قدومي إلى بيروت،
كانت تسكن معي في بيت صغير للطالبات، وسرعان ما
توطدت العلاقة بيننا وصرنا صديقتين. كنت أدرس الحقوق،
وكانت تدرس الإعلام في الفرقة الثالثة، لذا كانت منطلقة
ومتحدثة تحاور وتساءل يحس الآخر نحوها كما لو أنه التقى بها
من قبل، كانت مرشدتي في كثير من الأماكن التي أجهلها
وكنت أسر بالتجوال معها في شوارع المدينة، ومرافقتها في
تغطية بعض التحقيقات الصحفية.

من أكثر الأشياء التي أثارت دهشتي فيها تلك الغرفة
الصغيرة التي تجسد مزاجها الصاخب بالحياة، في وسط الغرفة
سرير صغير إلى جانبه مكتبه بخمسة أرفف، تضم كتبًا

متضاربة الموضوعات، طاولة صغيرة اختلطت فيها الأوراق بالكتب، وأقلام الكتابة بأدوات التجميل على الحائط صورة "غيفارا" وعبارات لفلاسفة غربيين وأقوال مأثورة، ولوحات مرسومة بتوقيع "سحر"، ولعبة صغيرة "لبابا نويل" يبدو عليها القدم. كنت أدرك في تلك الأثناء، أنها مرتبطة في علاقة حب مع "وائل" زميلها الذي تخرج وعمل في الصحافة، أحياناً كنا نلتقي ثلاثتنا في الجامعة أو على كورنيش البحر، وكانا يبدوان لي في غاية الانسجام والتآلف أو هكذا كنت أرى الأشياء حينها.

فجأة، خفت كل ذلك الصخب، وانطفأ بريق الحياة في عينيها، صارت تتجنبني بتعمد لتمضي معظم أوقاتها في عزلةٍ اختيارية، في غرفتها العجيبة.

رغم مرور الزمن مازلت أذكر بوضوح تلك الليلة، كنت قد حسمت الأمر، إنها تعاني من علةٍ ما، كثر ترددها على "الحمام" وصوت القىء الذي تحاول نكرانه كي لا يصل إلى مسامعي.. لم يتبادر إلى ذهني أبداً نوع المشكلة التي تعاني منها، لذا حين ارتفع صوتها بالنشيج والبكاء، فتحت باب غرفتها دون أن أستاذن في الدخول، حينها أصبت بهلع

حقيقي لأن ذاك الشعر الأشقر الجميل المصنف بعناية،
والمقصود عل شكل "كاريه" لم يكن إلا باروكة موضوعة
جانبيًا، بينما كانت سحر تمزق شعرها وتصرخ. كانت شبه
صلعاء. لم أكن أصدق ما أراه. "سحر"، التي شبهتها في المرة
الأولى بالمثلة المصرية "نيلى" بكل مرحها وحركاتها
الاستعراضية، كيف ظننت أني أعرفها بما يكفي؟ كيف لم أخمن
أن وراء تلك الضحكات مجرة من الأحزان.

سرت نحوها كالواقعة تحت تأثير تنويم مغناطيسي، بالكاد
كانت تحس بوجودي كانت تصرخ وتبكي وتردد عبارات غير
متصلة وتضرب الحائط، بقبضه يدها، اقتربت منها وأنا
أحاول التماسك، في محاولة لتهدئتها، تمسكت بي، ملقية
برأسها على كتفي وهي تبكي، فيما كنت أسأها بالحاح، ماذا
يجري، ماذا هناك؟ لم تتكلم، لكنها أشارت إلى علبة الأدوية
على الطاولة كي أعطيها إياها، كان نوعًا من الحبوب المهدئة
مستهلكة حتى نصفها، بعد أن ابتلعت حبتين تمتت في
نسيج كئيب، ودموعها تملأ وجهها:

فاطمة، أنا حامل.

كانت المفاجأة الثانية بالنسبة لي، إذ أحسست أنني أتحرك في فيلم سينمائي وأن كل ما يدور حولي هو محض خيال لأحداث مكررة، مللت مشاهدتها. لم أتكلم، ابتلعتي الصمت، بينما دخلت هي في حالة من حالات الهلوسة، والبكاء.

الأيام التالية كانت الأقسى بالنسبة لي، إذ كنت أجهل ما عليّ فعله سوى البقاء إلى جانبها للعناية الصحية بها، لم أفكر بأي نوع من الحلول، إذ لم أكن أعرف عن "سحر" إلا اسم القرية التي جاءت منها، وعلاقتها العاطفية مع "وائل"، ولفت انتباهي أن "وائل" لم يتصل بها طيلة فترة مرضها، لكنني فضلت عدم سؤالها في ذلك الحين.

بعد أيام حين تحسنت حالتها قليلاً، قررت مغادرة البيت، عرضت عليها المرافقة، لكنها رفضت بإصرار، حينما عادت كانت في حالة منهارة تماماً تشبه حالتها الأولى، لكن هذه المرة بدت أكثر حدة وانفعالاً، كانت تهذي، وتكرر اسم "وائل" تضرب على بطنها، ثم تطلب الموت. ولم يكن أمامي حينها إلا إعطاؤها الحبوب المهدئة التي تناولتها في المرة السابقة.

قررت البحث عن رقم "وائل" في هاتفها المحمول.
أخرجت الرقم من ذاكرة الهاتف، ثم قمت واتصلتُ به من
هاتفي الخاص، وطلبت لقاءه حالاً.. أجبني بأنه سيلقاني
لكن بعد ساعتين من الزمن في المكان نفسه الذي اعتدنا
الجلوس فيه على كورنيش البحر.

ملاحظته كانت معجونة بالتوتر والقلق، حاول مداراة
انفعاله باختلاق حديث مفتعل عن الدراسة، وكلية الحقوق،
وطرق النجاح وما فيها من محسوبيات. ثم قال وهو ينفث
دخان سيجارته: هذا البلد لم يعد يحتمل، سأغادر فور أن
أخذ التأشيرة بعد أسابيع..

- تغادر..؟! -

كررت الكلمة بهلع، وكأنني أحسست أنني سأترك
وحيدة مع سحر من دون أن أملك حلاً لمشكلتها.

قلت:

- جئت أكلمك بشأن "سحر".

ابتسم ابتسامة جانبية وهو يتمتم:

- إذن أخبرتك.

- لا لم تخبرني، بل عرفت من خلال حالتها الصحية.

ثم تابعت: سحر تقول إنك والد الطفل، وأنتك تخلت عنها وهي في حالة سيئة جداً الآن، إنها منهاره تماماً.

اندفعت بالكلام والوصف، وكأني أرجوه المساعدة.

ارتفعت نبرة صوته وهو يقول:

- هذا غير صحيح، أنت تجهلين الكثير من الأمور، لقد ظللت إلى جانبها حتى اللحظات الأخيرة، لكن كفي، لم أعد أحتمل خداعاً.

قلت بسداجة:

- خداع، عن أي خداع تتحدث؟ هي تحبك.

هدأت نبرة صوته قليلاً ثم قال:

فاطمة، استمعي إلي، لم أكن لأريد التحدث في هذا الأمر لكنك تجبريني على ذلك، أنا كنت أعرف بمرض "سحر" العصبي الذي أصابها بعد تعرضها لحالة الاغتصاب

منذ سنوات، ولتمسكي بها كنت آخذها إلى جلسات العلاج النفسي عند طبيب مختص، وبالفعل بدأت تتحسن وعاد شعرها لينمو من جديد، ثم توطدت علاقتنا وكانت تتردد على في بيتي، واتفقنا على الزواج، ولم أكن لأتراجع أبدًا، إلى أن صار بعض الأصدقاء يذكر أمامي أنها على علاقة مع شخص آخر، وبالفعل بدأت ألاحظ منها بعض التصرفات الغريبة، وكانت قد صارحتني بموضوع الحمل قبل ذلك بأيام. حين واجهتها بما سمعت مع تأكدي أنني رأيتها برفقته لم تنكر، بل صرحت لي أنها على علاقة كاملة معه، حينها جننت وطرقتها من منزلي، اليوم عادت وأتت إلى تطلب إيجاد حل لمشكلة الحمل، طلبت منها أن تؤكد لي إن كان ابني أم لا، فأجابت بأنها "لا تعرف"، صرخت في وجهها وطلبت منها الذهاب.

بانت في عينيه أثر الهزيمة والحزن ووجدته يكرر كلماته
قائلاً:

- فاطمة، لو أنها تؤكد لي أن هذا الطفل هو ابني، أنا مستعد لمسامحتها، فاطمة هل تعرفين أي شيء آخر؟

كانت الأحداث السابقة تتوافد إلى مخيلتي، وكلماته أصابتنى بحالة من الذهول التام، دفعتني للتأكد من أني لا أعرف أي شيء، ثم تركته ورحت أسير لمدة ساعة من الزمن حتى أحسست بالإرهاك فعدت إلى المنزل.

لم أجد "سحر"، كان باب غرفتها مفتوحا، وهاتفها متروك على الطاولة، اتصلت "بوائل" وأخبرته، فأجابني أنها من الممكن أن تكون غادرت إلى الضيعة، وسيتصل بي في حال معرفته مكانها.

بعد مرور ثلاثة أسابيع عادت سحر إلى المنزل، لتأخذ شيئا من أغراضها، بدت لي مختلفة تمامًا، وكأنها شخص آخر قادم من عالم الأشباح، شاحبة، نحلة يبدو عليها المرض، قائمة منهكة، حاولت سؤالها عن أيام غيابها، عن حالتها الصحية، لكنها لم ترغب بالتجاوب معي، وظلت جملها مقتضبة وغير موصولة، أحياناً تضحك بشكل هستيري وهي تدخن، وتؤكد لي بأن علاقتها مع ابن النائب الذي سيأتي لينقلها بسيارته الآن سوف تنتهي بالزواج، ثم تعود للحديث عن "وائل" بأنه خسرهما للأبد وأنها لا تفكر بالعودة إليه. كانت هذه هي المرة قبل الأخيرة التي رأيته فيها لكن

قدومها في مثل هذه الزيارات الخاطفة تكرر أكثر من مرة إلى أن طلبت منها صاحبة الشقة مغادرة الغرفة تمامًا.

المرة الأخيرة التي رأيتها فيها، كانت بعد ذلك بأعوام، بعد أن تخرجت وبدأت في التدريب في مكتب أحد المحامين المعروفين، كان ذلك لدى عبوري "شارع الحمرا" مساء برفقة أحد الأصدقاء، كانت تقف إلى جانب مقهى "ومبي" مع شاب أجنبي، ممسكة بيدها زجاجة بيرة، وترتدي بنطالاً شفافاً يلتصق بجسدها، وبلوزة قصيرة تكشف عن بطنها.

رغم تغير ملامحها استطعت تمييزها، لكنني تابعت طريقي وإحساس حاد بالحزن والرثاء يملأ داخلي. وكلما كنت أذكر "سحر" تعود إلى ذاكرتي صورتها الأخيرة في الشارع، وأتساءل "أين الحقيقية؟" من كان كاذباً أو من كان صادقاً؟ من الذي ظلم؟ لكن رغم ذلك لم أستطع العثور على إجابته.

إلى أن جاءني اتصالها الغريب في تلك الليلة، تطلب مني النجدة ودون سؤالها عن أي شيء كنت قد وعدتها بالمساعدة. لكن بعد أن وضعت سماعة الهاتف، وبعد أن برد صوتها في داخلي، عاد إلى التردد والخوف من لقاءها، من

وجودي معها، من تلويث اسمي وسمعتي، في المرة الثانية
تجاهلت هاتفها، وفي صباح اليوم التالي أبصرت صورتها في
الجريدة في حادثة قتل غامضة مشبوهة، جاء في الخبر، بأن
أجهزة الأمن لم تستطع التعرف على صاحبة الجثة .. ترى
ماذا كانت تريد أن تقول لي؟

٢٠٠٣/١/٤

الفهرس

٥	بيت الأرابيسك
٩	الموتى لا يكذبون
١٦	مدينة الألعاب
٢٣	البحر يتجه شمالا
٢٩	صندوق كرتوني يشبه الحياة
٤٠	ثلاث ساعات قبل الرحيل
٥٤	عيد ميلادي
٦١	رعشة
٦٥	اعتراف
٧٥	الكنار مازال يغرد
٨٥	سفر
٩٠	عشق أباد
٩٥	أحلام تغسل الماء
٩٩	لون مر
١٠٣	آنهيمالا
١١١	السابعة إلا ربع مساءً
١١٩	خمسة وجوه لعالم حياة
١٢٥	صورة مشروخة